مجموعة قصصية

حــدث فــي العــريش

المؤلف

زين العابدين الشريف

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

الإهـــداء

الى ولـــدي الحبيب محمـــد . . أول من شجعني ، وقت كان طفلا صغيرا .

والى حسن عبدالعـــزيـــز ، الصـــديق الصدوق ، الـذي كثيرا مـا أفـرغت لـه مـا قرأت وما كتبت . . وتحملني كثيرا .

زين العابدين الشريف

تقديم

خطر ببالي وانا ارنو لغلاف المجموعة (حدث في العريش) اني مقبل على قراءة ارشيفية لمدينة العريش المصرية.. وما ان بدأت اداعب الصفحات للغوص في اعماقها، حتى وجدتني امام أديب واقعي يعشق تراب بلده، ويحرص على ابراز نواحي اجتماعية لم يتطرق لها كاتب من قبل، في اعماق العلاقات اليومية بين الافراد، الاقارب، الاصدقاء، الجيران.. حيث.. الحب، الكره، السرقة، الخيانة، الخير، الشر، الغيرة، حتى طريقة ومستوى التفكير.. قدر المستطاع.

تناولت المجموعة من خلال حكاياتها الانسانية العميقة.. السمات الخاصة بمجتمع العريش الحضري.. حيث بدت من خلالها رؤية الكاتب في الدعوة الواضحة للعودة الجادة والتشبث بالتراث والاصالة.. سعيا لنبذ السيء الفاسد، وحرصاً على مستقبل أفضل للابناء والاحفاد..

وتمكن «الشريف» باقتدار فريد، ورؤية واضحة ومباشرة، وأسلوب راقي بسيط، تخللته بعض العامية التي أكدت ان المجموعة كانت انعكاسا صادقا لغلافها (حدث في العريش). وليس هذا بغريب على الكاتب الشاب الذي استطاع ان يخرج بعض الشيء عن اسلوبه الصحفي المعهود في المقالات والزوايا المنتشرة في بعض الصحف اليومية، لينحو برجولة وصدق وذوق عالي صوب الابحار في نهر الأدب الفياض..

طرحت «حدث في العريش» بوضوح رفض الكاتب للزواج العرفي المنبوذ، كما طرحت آثار الاصالة وغرس المبادىء الفاضلة منذ الصغر في نفوس الابناء لتخطي مشكلة السرقة، كما حدث في قصة (الشنطة). وركز الكاتب من خلال قصة (سهام الشيطان) على أثر التربية منذ الصغر في الانتصار على الشهوات.. ليس في سد الجوع الجنسي فحسب.. ولكن في الاخذ بيد المريض لعلاجه والاثار المترتبة على عجز الزوج جنسيا. كما حث على العودة للعلاقة القوية بين الانسان وشجرة الزيتون المهملة، والتي تسهم في زيادة الدخل القومي للبلاد.

كما فاحت من (موسم النسيان) رائحة الروح الوطنية الاصيلة لشعب العريش، والغربة القاسية التي عاشها المجتمع في فترة الاحتلال بعيدا عن الوطن الام، ومدى تأثرهم برحيل الزعيم عبدالناصر، والتي أكدت مدى التحام ابناء الوطن مهما تناثرت اطرافه.

كما اوضحت (العودة) ـ التي يبدو ان بطلها الكاتب نفسه ـ الفرق الكبير بين العيش في الوطن حيث الاهل والاقارب والاصدقاء، وآثار ذلك المعنوية، والعيش في الغربة مهما تحققت من مكاسب مادية..

وعالجت المجموعة من خلال قصة (الجوع) مشكلة اللهاث وراء المال، كما هو حال كثير من المجتمعات، وما يترتب عليه من اهمال الزوجة التي قد تكون لقمة سائغة لجوع آخرين يبحثون عن الجنس!

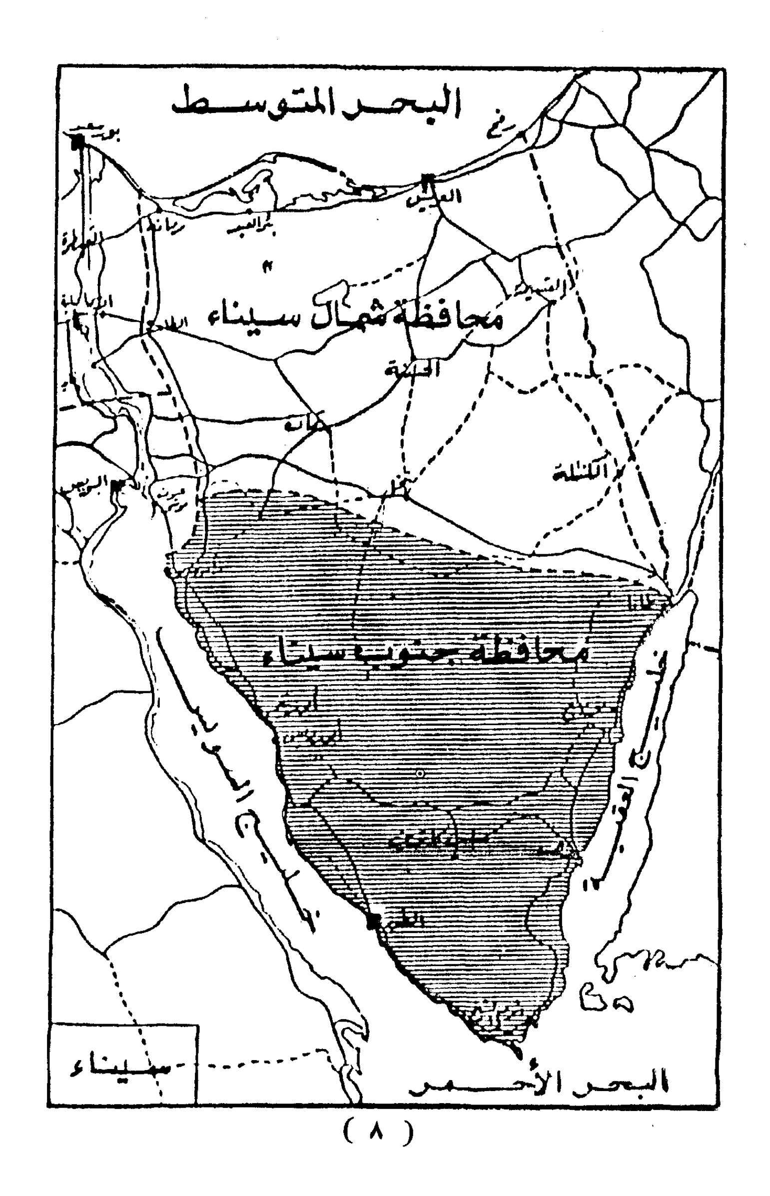
وهكذا تراءى لي، أو لمست ان الكاتب حاول من خلال قصص المجموعة الحرص على نقطتين اساسيتين هما:

الاولى : ابراز النواحي الجمالية لمدينة العريش كمدينة سياحية تتمتع بطبيعة ساحرة خلابة . . حيث البحر والنخيل والاسماك والسمان والزيتون . والامان والهدوء الذي تحياه ، للاسهام في جذب الناس اليها واعمارها .

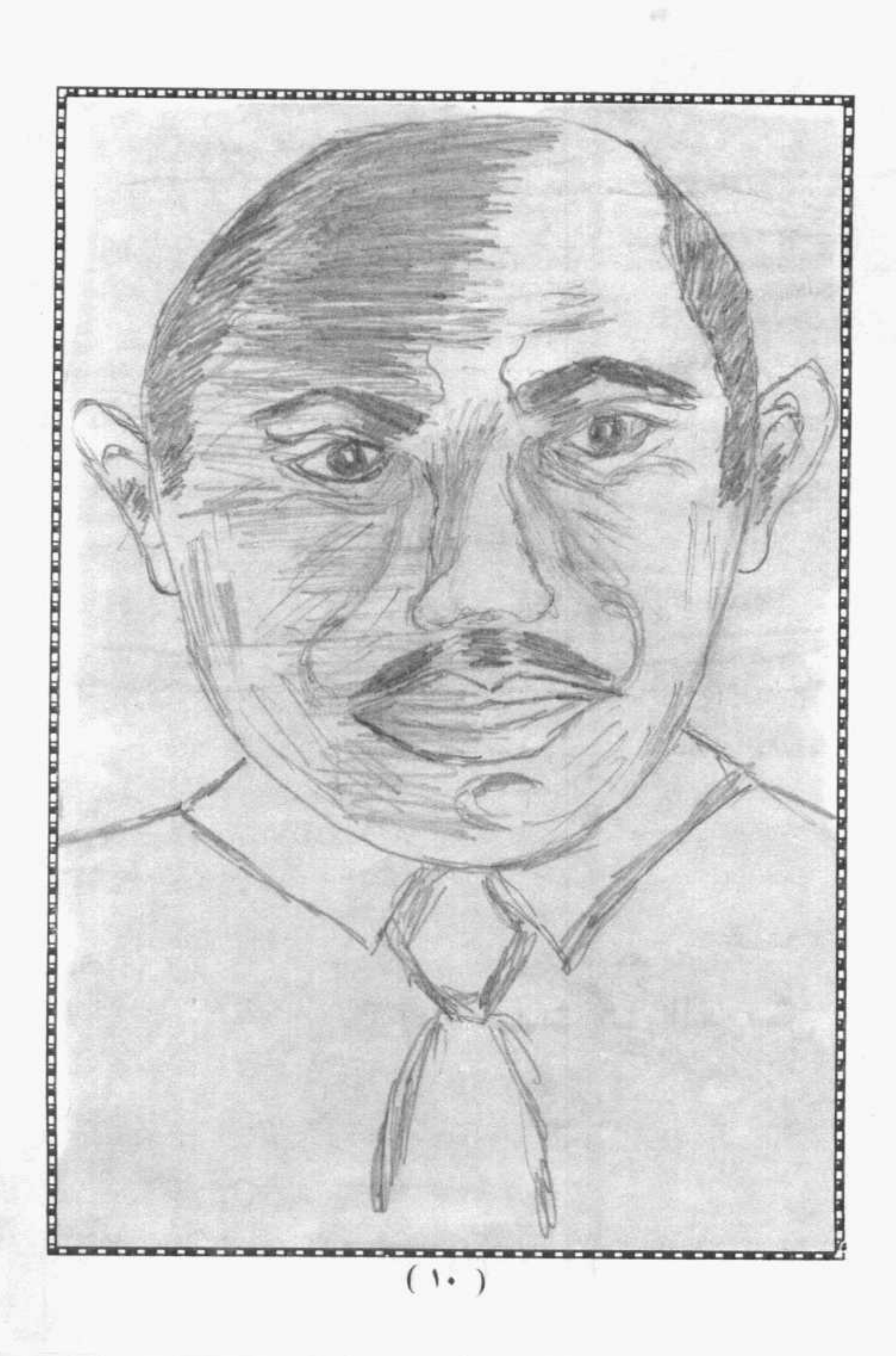
الثانية : الايعاز للتقدم بالمجتمع الى مرحلة ليست مستحيلة ، ولا صعبة . . مرحلة الافق المتفتح ، والعقل الرحب ، والذوق الرفيع ، والاسلوب الرقيق ، والكلمة الطيبة التي لها وقع السحر في النفوس ، والتي تنفذ للقلوب دونما استئذان .

أشد على يد الأديب زين العابدين الشريف . . وأهنئه من قلبي بمجموعته الاولى ، حاثا إياه على ولوج الأدب القصصي من أوسع الأبواب ، ومواصلة الكتابة . . فالنكر متقد ، والحماس قوي ، والاسلوب اكثر من رائع . . والابحار في متناول يده .

د . عبدالعزيز شرف
رئيس القسم الادبي
واستاذ الاعلام بالجامعات المصرية


البحر المتوسط
محافظة شمال سيناء
محافظة جنوب سيناء
البحر الأحمر
سيناء

حدث في العريش



بينما كانت تتعانق نسمات الهواء المتكاسل، مع اشعة الشمس الجريئة، لاقتحام منزل نسمة عبر النوافذ التي فتحتها أمها للتو، ثم راحت توقظ إبنتها الصغيرة.. تظاهرت نسمة بالنوم.. وقد جاوزت الساعة الثامنة صباحا.. وراحت تتقلب على السرير يمينا ويسارا، وراح ثوبها القطني السميك يتأرجح بين أجزاء جسمها، ولا يستقر في مكان، مدت يدها تتحسس جسدها الناعم، وشعرت انها بحاجة لحمام ساخن يخلصها من ارهاق الامس.. حاولت إغماض عينيها.. ولكن هيهات.. كل شيء فيها متوقد ويقظ، لدرجة انها تسمع كل ما يدور حولها في البيت، وحتى في الشارع الذي تنبعث منه أصوات السيارات والجيران والباعة والمارة.. لكنها فقط تحاول الآ تسمع صوت أمها الذي يدعوها للنهوض..

كانت الأم في المطبخ المزدحم بأكوام الأطباق والكاسات والملاعق والشوك المكدسة، بعد عزومة العشاء الضخمة الليلة الماضية.. التي كان من أهم المدعويين لها خطيب هويدا.. أخت نسمة الكبيرة.. وبعض أفراد اسرته.. الذين استمتعوا بالتهام أنواع مختلفة من الاسماك..

والاسماك في العريش لها طعم ومذاق خاص طيب ولذيذ.. يختلف عن اسماك أي بقعة في العالم، لانه يأتيها إما من بحرها النظيف النقي، حيث لا زيوت ولا شحوم ولا محروقات ولا بواخر ضخمة تلقي مخلفاتها، ولا ميناء تلوث مياهه وشاطئه البكر.. وإما من بحيرة البردويل المليئة بأنواع لا حصر لها من انواع الاسماك وخصوصا

الدنيس» الفاخر الذي يسافر منها لانحاء مختلفة من دول العالم . .

وقد إشتهر سكان مدينة العريش الساحلية بمعرفة أسرار الحيوانات المائية، والاساليب العديدة لاصطيادها، وطرق طهيها، وأخذ عنهم أنهم اصحاب أكلة «الصيادية» التي غالبا ما يكون ضحيتها سمك «البوري» المسلوق في حساء مائل للاحمرار، بالاضافة الى الارز الداكن اللون، عدا الطرق الاخرى من شوي وقلي، أما الدنيس والوقار وابومنتار والدهبان والجمبري والكابوريا وانواع كثيرة اخرى، فلها طرق عدة للطهي. وقد يعمد الاهالي الى السردين فيصنعون منه أصابع الكفتة اللذيذة والغنية بالفسفور . . أما الفسيخ «العرايشي» فقد غادرت شهرته وانتشرت اخباره الى اماكن عديدة خارج المدينة .

إنسلت نسمة من فراشها وذهبت للحمام وملأت «البستلة» بالماء، ووضعتها على النار ريثما تسخن مياهها، ثم عادت الى فراشها محاولة إيهام أمها بانها لا زالت نائمة . . زادت ضجة الاصوات الاتية من الشارع الرئيسي، وطغى عليها صوت أم كلثوم المنبعث من جهاز تسجيل في محل الادوات المنزلية في الطابق الارضي لمنزلها . . وكانت أغنية «أقبل الليل يا حبيبي» . . يا له من أحمق صاحب هذا المحل . . حدثت نسمة نفسها . . لسنا مضطرين لسماع أقبل الليل، وقد فارقناه منذ وقت قليل، والوقت لا يزال مبكرا . . كان المفروض ان يضع شريط مناسب لاغاني الصباح .

صرخت أمها بصوت عال من المطبخ . . قومي يا نسمة . . الشمس غابت والبيت عاوز شغل كتير . .

بعد مضي وقت غير قليل، نهضت نسمة من سريرها متثاقلة، واتجهت صوب الحمام.. بينما خرجت أمها من المطبخ ليلتقي الاثنان قرب الصالة الصغيرة المؤدية للحمام.

قالت الام بعصبية واضحة.. هيا ادخلي المطبخ وكمّلي الشغل.. تجاهلت نسمة كلام أمها، ودخلت الى الحمام تتحسس الماء الذي بدأ يغلي من شدة الحرارة..

تبعتها الأم الى الحمام، وكررت التعليمات بأن تذهب الى المطبخ..

قالت نسمة.. عايزه استحمى الاول.. وبعدين المطبخ ده، شغل الست هويدا علشان العزومة كانت لخطيبها!

قالت الأم.. اختك موظفة.. ولا يمكن أن ننتظرها الى الثانية بعد الظهر حينما تعود من عملها، لتنظيف أواني المطبخ.. ثم متى ابدأ في شوي السردينة..

قالت نسمة.. يعني انا اخدت اجازة من المدرسة علشان شغل البيت؟ الحمام الاول وبعدين المطبخ..

ردت الأم.. مافيش حمّام قبل شغل المطبخ.. إحتد النقاش بينهما، واصبح للصوت رنين عالي غير مفهوم، بسبب الصدى المنعكس من أركان الحمام، مما دفع الأم أن ترفع يدها لضرب نسمة على وجهها.. حاولت نسمة ان تتلاشى الضربة، إبتعدت الى الوراء قليلا.. فارتطمت يدها في بستلة الماء التابعة فوق النار.. إختل توازنها ووقعت على الارض ووقع الماء المغلي عليها..

صرخت نسمة . . وصرخت الام . . وانتابت البيت حالـة من الفوضى والهستيريا، واختلط الصراخ بـاصوات كـل شيء في البيت والشارع بينما ظلت ام كلثوم تصدح باغنية . . اقبل الليل يا حبيبي .

اصيبت نسمة بحـروق من الـدرجـة الثـانيـة ونُقلت الى مستشفى العريش الاميري، المستشفى الوحيد في البلـد، واجتمـع الاطبـاء فـورا للعبور بها من مرحلة الخطر، لكنها مكثت هناك ستة اشهر . . تمنت لو انها قضت عمرها كلـه بين جـدرانهـا الـرحيمـة، حيث الـزوار الـذين يتحلقون أغلب الاوقـات حـول سريـرهـا، وكلـمات الحنـان والعطف والاطراء المنبعثة منهم، ومن والاطباء والممرضين والممرضـات، وحتى المرضى . . تلك العبـارات الـرقيقـة التي ازاحتهـا عن مستنقـع الحـزن والكآبة، وبددت من همها وغمها الكثير الكثير، والورود والهدايـا التي ملأت اركان غرفتهـا، ومـلأت معهـا اركـان قلبهـا وكيـانهـا المتعطش لنسمات الحب والحنـان، لكنهـا نقلت فيما بعد الى احدى مستشفيـات القاهرة، واجـريت لهـا خـلال وقت قصير عمليـات تجميـل جـراحيـة تطلبت دقة أكبر ومهارة فائقة، حاول خلالها الاطباء هزيمة آثار الحرق لطمس معالمه، واعـادة جلـدهـا الى شكلـه الطبيعي ووضعـه الاول . . لكنهم لم ينجحوا بدرجة كبيرة!

عـادت نسمـة الى العـريش وقـد اظلمت الـدنيـا في عينيهـا . . واصبحت تجر انكسارها خلفها، وتحمـل حطـام كيـانهـا، فقـد فشلت عملية التجميل، وسقطت معها احلامها الغضة، وتعثرت خطـاهـا في طريق مظلم لم تبدأه بارادتها، ولا تعلم نهايته .

لفت نسمة سحابة حزن سوداء كانت تمطرها كل يوم بقطرات مريرة من التعاسة، تسحقها بلا هوادة، تحت حروق الهزائم الساحقة.. اغلقت على نفسها حياتها، وشرعت في اجترار المرارة تلو الاخرى.. وضلت البسمة الطريق الى شفتيها.. ولم يعد لديها سوى الجفاف والبشاعة الزاحفة.. وكثيرا ما وقفت امام المرآة تتفقد وجهها، وتحدث نفسها، والدموع تسيح على خديها مسببة لها آلام.. اكثر ألف مرة من آلام الماء المغلي.. وهي تتذكر قبل عام وعمرها حينذاك سبعة عشرة عاما.. تعليقات الاعجاب التي كانت تنهال عليها في طريق العودة من المدرسة، من أصحاب المحلات والزبائن والمارة في الشارع الرئيسي، والتي كثيرا ما اسعدتها ودغدغت مشاعرها، وسببت لها حالة من النشوة، جعلت قلبها ينفك من حبسه الازلي، وروحها تحلق في ارجاء الكون الفسيح.

فقد كانت على درجة كبيرة من الجمال الفاتن الذي يأسر القلوب ويسحر العيون. فكل شيء فيها جميل.. جسمها الرشيق، وقوامها المناسب لرشاقتها.. كل شيء فيها ناضج ونافر ويعلن انه ولج ساحة الانوثة، ودخل بتحدي سافر ميدان السباق المضمون للفوز بلب من يعشق الجمال ويقدر للانوثة حقها.. ووجهها الاسمر الملائكي الفاتن الذي تتخلله عيون واسعة غاية في الجمال، كأنها استعارت من شاطىء المدينة هدوءه، ومن تلاطم امواجه موسيقاه، يربك بريقها الجريء كيان أي انسان تقع عيناه عليها.. وفم صنعته قدرة الخالق بابداع تكاد ترى ما بداخله من شفافيته، وشفتان رقيقتان تخشى ان يصيبهما أي أذى

حتى من الحروف التي تخرج منهما، وخدود تعكس حمرة البلح الذي تشتهر به المدينة، يغطي هذا الوجه الناعم المتناسق شعر أسود كثيف ينسدل على كتفيها.. يزيدها انوثة فوق انوثتها..

مسحت عيونها بعد أن ضربت المرآة بكفيها الرقيقتين.. احتجت.. ثارت.. ثم اقتربت من المرآة.. وبدت لها النافذة المنعكسة خلفها.. لاحت من خلالها صورة لوجه ذلك الطبيب الشاب الذي طالما انتظرها في مكان ما بالقرب من مدرستها أيام طويلة، كان يتوسل اليها ان تسمح له ان يزورهم لكي يطلب يدها.. كانت تبتسم وهي تواصل سيرها للاستمتاع بمزيد من إطراءات المارة والجيران في الطريق.. وتذكرت كم تقدم لخطبتها اكثر من شاب، كانت ترفضهم. كانت احلامها لا حدود لها. فغارسها المنتظر لا وجود له.. شاب وسيم ومن عائلة محترمة وغنية.. له سيارة ومثقف وأهم شرط لقبوله ان يهوى الرسم بجميع انواعه... الرسم على الورق والخشب والفخار.. فقد كانت تعشق هذه الاشياء.. ثم أطلقت زفرة صارخة قوية لا يكاد يتحملها قلبها الصغير.. وهمست في داخلها.. ماذا حدث؟ وكيف حدث هذا؟

توالت الايام متباطئة ثقيلة، ولم تنقطع زيارات صديقاتها لها.. همست احداهن لها.. لماذا تستسلمي لليأس يا مجنونة.. انت ما زلت جميلة.. وتلك التشوهات البسيطة يمكن حجبها بثياب تنساب قليلا على وجهك واطراف من عنقك..

اقتنعت نسمة بالفكرة التي جعلتها تتحايل على التشوهات

الصغيرة بلبس الحجاب الذي غطى جزء كبير من عنقها، بحيث لم تعد هناك اشياء بادية منه.. لكنها ما برحت تفكر ليل نهار في تلك التشوهات التي تراها هي كبيرة ضخمة، بينما لا يكاد أحد من الناس يذكر الا أخبار تلك الحادث، أما آثاره فقد توارى جزء كبير منه خلف ذلك الجمال الساحر، والجزء الباقي خلف الحجاب.

في تلك الاونة اقتحم حياتها جميل.. سائق تاكسي أجرة.. كان قد طلق زوجته وله من الاولاد والبنات ثلاثة.. لم يكن لجميل نصيب من اسمه.. فقد كان دميم الشكل، له سحنة مقطبة تثبت بشكل مباشر أن الانسان أصله من طين.. يتوسط وجهه أنف كبير يشبه الى حد ما «كرنافة» النخلة التي تبدأ ضيقة ثم تتسع شيئا فشيئا ثم تنتهي فجأة وبدون سابق إنذار، يعلوه شارب كثيف، تخاله سرطانة سوداء كأنها تخلفت عن رفاقها وهي تحاول الوصول الى النظارة السوداء السميكة الموضوعة أغلب الوقت فوق أنفه.. وتشبه الى حد ما الناضور، واحيانا ينتزعها ويضعها في يده، ويظل مكانها فارغ كأنما انتزعت ورقة كانت ملصوقة فترة طويلة على شيء ما!

في أول الامر بدأ جميل بدهاء ماكر ينسج حولها معادلة ماكرة. فيوسوس لها أن حالتها حرجة وميؤس منها من ناحية، ثم يظهر من ناحية اخرى أنه اقدر الناس على علاجها، وأكثرهم خوفا عليها.. فراح يزرع اليأس والاحباط في داخلها، ويردد على مسامعها ان التشوه الناتج عن الحروق لا يمكن ازالته الا بعملية في امريكا.. وانه على استعداد لعلاجها على حسابه الخاص.. ثم يعود يذكّرها بجمالها

السابق، وهو يعلم انها لا زالت أجمل الجميلات.. لكنه يحاول ان يصطاد في الماء العكر..

قال لها ذات ليلة.. انها لا بد أن تقنع بقضاء الله وقدره، وان ترضى بنصيبها، وأوهمها انه لا أحد يفكر في الزواج منها الان، وعليها ان تكسب الوقت، وتنكر بجدية في الزواج منه، لانه قادر على اسعادها، ولن يتأخر عن علاجها، وحينما يكتب الكتاب عليها سيسافر بها الى امريكا ليعالجها أحسن علاج، ويزيل ما بقي في جسمها من تشوهات، وانها ستعود اكثر جمالا من ذي قبل..

لم تنم نسمة ليلتها من التنكير.. وهي تحدث نفسها.. صحيح انه - جميل - ليس فارس الاحلام المنتظر.. لكن الاحلام نفسها تغيرت وتبدلت، واذا لم أقبل الان بإنسان ابدى استعداده لعلاجي.. فقد يخدعني الزمن لاجد نفسي بعد فترة قليلة على هامش الحياة، لا أحد ينظر اليّ، ثم ان جميل انسان طيب وكان يزورني في المستشفى ويحضر بعض الهدايا والشوكولاته.. وهو الان أعزب، ويبدو ان زوجته السابقة لم تقدره حق قدره، ولم تفهمه وتفهم رجولته، ولن يشكل اولاده عقبة في حياتنا، فهم يقيمون عند جدتهم، وقد اكسبته زيجته السابقة خبرة كبيرة في الحياة الزوجية وفي معاملة النساء، ولن يتوانى عن اسعادي.. خصوصا وانه شجعني على تكملة تعليمي، كما انه يهوى الرسم ووعدني بأن يجعل لي حجرة خاصة في المنزل الجديد لامارس هواية الرسم فيها.

لم تفارق صورة جميل خيال نسمة في تلك الليلة، وما برحت

كلماته آذانها، وما انفلج الصبح حتى اقتنعت تماما بضرورة زواجها منه، فهمست له . . والامل يحدوها، والسعادة تراودها . . ان يتقدم لاهلها لخطبتها!!

لم يوافق الاهل على جميل زوجا لنسمة . . فهم يدركون الفرق الشاسع في العمر والمستوى الاجتماعي بينهما، لكن نسمة أخبرتهم انه سيأخذها الى امريكا للعلاج، وانه الوحيد في البشر الذي يعرف ما تريد . . وهددتهم بانها اذا لم تتزوج منه فستحرق نفسها بارادتها هذه المرة.

وافق الاهل على مضض، فهي الصغيرة المدللة، التي لا يعصى لها أمر، خصوصا بعد الحادث الأليم . . ولان الفاتحة تقرأ على ارواح الموتى، وتقرأ بين الاحياء عند الزواج، فقد قرأ اهلها الفاتحة وهم لا يدركون المصير الذي ينتظرها، لتبدأ مرحلة جديدة في حياة نسمة . .

بزغت شمس نسمة مرة اخرى، وانطلقت للحياة من جديد، وشعرت ان الدنيا تمد لها ذراعيها وتحتضنها، وتنثر على احلامها عبير السعادة التي حرمت منها، كانت تخرج مع جميل في سيارته الاجرة، تزرع الاماكن املا ورجاءً، وتحدث نفسها عن مستقبل مشرق مزدهر . . وجميل متيم بها، لا وقت لديه الا لها . . يجرل الشوارع صباحا ومساء وهي تجلس بجواره تستمع تارة الى حديثه عن المستقبل الوردي، وتارة اخرى تنظر الى الناس في الشوارع، وكأنها تبعث لهم رسائل تحدي بانها هزمت التشوه، وعادت للحياة من جديدة، وقد فازت برجل يعرف تماما ما تريد، ويضمن لها أيام جميلة مقبلة . .

توالت الايام تحمل لنسمة نسمات الفرح، وعادت تزهو بنفسها من جديد. . وكان جميل لا يبخل عليها بشيء تطلبه. . حتى انها طلبت منه في احدى المرات - اثناء تجوالهما في التاكسي - خمسمائة جنيه لكي تفصّل فستان بطريقة معينة يضمن لها ستر عنقها حسب موديل حديث. . تردد جميل في الموافقة قليلا. . وراح يحدث نفسه، وهو الذي لا يفوّت موقف بعينه دون الاستفادة من كل دقائقه وتفاصيله. .

قال جميل: اوافق. . لكن بشرط ان تكتبي لي ورقة بالمبلغ، حفاظا للحق، فانت تعلمين اننا في فترة ما قبل الخطوبة، وتعلمين أن اهلك ترددوا كثيرا في قبولي. واخشى انقلابهم عليّ في أي وقت، وقد يضغطوا أو يؤثروا عليك لتتركيني. . فهم لا يدركون حقيقة شعوري نحوك، وما يكنه قلبي لك من حب كبير، اكتوي صباحا ومساءً بناره. .

قالت نسمة: أهلي لا يرفضون لي طلب، لا تشغل نفسك. . سوف تثبت لهم الايام حسن اختياري. . وساعتها ستكون واحدا من افراد الاسرة. عموما. . أعطيني الفلوس، ودعني اوقع لك الان في التاكسي، ورقتين وليس ورقة حتى تطمئن، ثم أكتب تفاصيل هذا المبلغ في البيت على هدوء. .

أوقف سيارته في احد الشوارع الجانبية، وأشعل ضوءها الخافت. . أعطاها ورقتين فارغتين، وجعلها توقع اسمها اسفلها، ثم اعطاها المبلغ. . وانطلق بسيارته ليوصلها الى بيتها، بينما ترك قلبه يتراقص من الفرحة، فقد وضح الهدف الخبيث الذي يسعى لتحقيقه،

وترك العنان لفكره يصول ويجول عما يفعله في الورقتين، كي يحكم الخناق على فريسته الجميلة، لتكون طوع يديه.. واخيرا أسلم قياده للشيطان يوسوس له ما شاء من اساليبه اللعينة، للمضي قدما في دروب الرذيلة المظلمة..

كتب جميل في الورقة الاولى انها تزوجته زواج عرفي..

وكتب في الورقة الثانية انها مدانة له بمبلغ عشرون الف جنيه.. وقد كان جميل يحتفظ ببطاقتها الشخصية لانهاء اجراءات جواز السفر، ولم يزد على ان وضع رقم بطاقتها، بجوار توقيعها، بجوار توقيع شاهدين من رفاقه المخلصين.

لاحظت نسمة في الايام التالية تغيرا في مسالك خطيبها، الذي كان يرمقها في اغلب الاوقات بنظرات إنسان جائع، ويأتي بتصرفات لا شعورية تنم عن نوايا خبيثة، كانت تتظاهر بعدم الفهم، خوفا على احلامها من الضياع، وأملا في تحقيقها..

جنحت العلاقة بينهما شيئا فشيئا نحو الفتور، عندما تكشفت لنسمة حقائق لا تبشر بالخير عن خطيبها.. فهو لم يكن متزوج من واحدة بل اثنتين، وهو يتعاطى المخدرات (البانجو)، عدا عن اخلاقه السيئة ومزاجه الفظ، وسبه بسبب وبغير سبب الناس، حتى انها تذكر انه سب دين إمرأة مسكينة طلبت منه مساعدة.. وقد ظل قرابة شهر لا يرى اطفاله المنتشرين في الشوارع ولا يعلم عنهم شيئا.. فهو لا يؤتمن على عهد، ولا اطفال، ولا أم، ولا زوجة.. ولا حبيبة.

ثم تفيق نسمة مرة اخرى على اجراس الأمل تقرع أمام عينيها..

وكأنها تحاول عبثا الامساك بشيء ما يهرب منها. . تغمض عينيها بقسوة. . تمنت لو كان لها عقل كومبيوتر تستطيع ان تمحو كل ذاكرته مرة واحدة، وان تنسى كل ما حدث مرة اخرى. . وان تقنع نفسها بأنها متوهمة. . حاولت ان ترسم له صورة أفضل في خيال جديد. . همست في داخلها. . لا. . لا يمكن. . انه يحبني بجنون. . وإن كان قد أهمل اولاده وأمه فهذا لاجلي، فحبي سيطر على كل جوارحه، وأنساه واجباته. وأنساه حتى عمله. فهو لا يركب أحد في التاكسي غيري. . وربما كانت حكاية المخدرات. . أو زوجته الثانية. . اشاعات اطلقها الحاقدون. أما مزاجه النظ واعصابه المشدودة فأكيد بسبب عدم ترحيب اهلي به، انه تكفل بعلاجي، وانا بالنسبة له ملاك يختلف عن بقية البشر - كما قال لي مرات ومرات. .

فاقت نسمة على صوت زامور سيارة جميل في احد الايام. . تذكرت. . انها على موعد معه. . لبست ثيابها وغادرت البيت مسرعة، وجلست بجواره. . ثم سألته عن الوجهة. . قال لها وهو ينظر في مرآة السيارة، انه ذاهب الى الشقة الجديدة التي ستجمعهما عما قريب بعد زواجهما. . لتراها وتقول رأيها. . فرحت نسمة بمرارة خافية. . فقد كانت تتمنى ان يكون لها بيت ملك وليس شقة، وما ان دخلا الشقة التي أخفى عليها انه استعار مفتاحها من احد اصدقائه، حتى أغلق الباب وإنقض عليها كالثور الهائج في اقل من ثواني، حاولت ان تخلص نفسها، مزق ملابسها. حاول ان يقبلها، لنظته بقرف، هجم على ذراعها وكاد يكسره. . ولم يوقفه عند حده الا صراخها المرتفع. .

خاف من الجيران . . وخشي من صاحب الشقة . . لكنه ظل يضربها على وجهها بلكمات قوية ، ويكيل لها من الشتائم والسباب ما يلوث مياه البحر ، بالفاظ سائق عاش قرابة ثلثي عمره في مستنقع من التخلف والتاذورات . . في مجتمع لا يقر رجاله اكثر من الجنس وظيفة للمرأة . .

ثم جلس على الارض وهو ينزف عرقا ، وقد انتفخت عروقه ، واسود وجهه . . ليحاول تجميع شتاته . . أما هي فقد اسرعت باتجاه باب الشقة وطالبته بصوت عالي ان يفتح الباب حتى تغادر . .

رمقها بنظرة صفراء ، وقال لها بصوت مبحوح منهك . . على العموم سوف افتح لك الباب . . هذه المرة براءه . . أما المرات المقبلة فاني احذرك ان تعصيني . . ومد يده الى جيب القميص المعلق على جسده . . والذي تكسوه مساحات كبيرة من الزيوت والشحمة ، وأخرج منه الورقة الاولى ، وقال لها بسخرية وازدراء : انت زوجتي أمام القانون ، وهذه ورقة الزواج العرفي ، وهي موقعة منك ومن الشهود ، وطالما اطعتني فلن تكون هناك مشكلة ، اما اذا امتنعتي وعملتي نفسك شريفة . . فستكون نهايتك السجن والفضيحة . . ثم اخرج الورقة الثانية . . واشار لها . . وهنا توقيعك على اقتراض مبلغ عشرون الف جنيه ، وسأضع التاريخ عليها عند اللزوم . . لا تفكري في أي ارتباط مع أحد . . ولا تفكري في أي ارتباط بيننا . . كيف ارتبط مع وحدة مشوهة ، لها علاقات مشبوهة مع الاطباء في المستشفى الاميري . . سأمنعك من رؤية أحد . . وسأصنع لك طوقا من الألم

والعزلة. . وسأراقب هاتفكم. . أنا اريدك لي. . فقط أنا. . انا اريدك هكذا فقط. . كلما اردت. . انا لا اريد زواج ولا دوشة. .

شعرت نسمة بدوار ملأ عليها الدنيا من هول الصدمة. . ولم تدري ماذا تصنع. . كل ما كانت تردده. . افتح الباب يا حيوان. .

تورمت قدما نسمة وهي تزرعهما وتنقلهما في خطوات يائسة متثاقلة عبر الشوارع. . كانت تخشى ان تلوح لها صورة جميل في أي سائق تاكسي. . تمنت لو أن لها اكثر من قدمين تحملانها. . آثرت ان تمشي ساعتين سيرا على اقدامها العاجزة. . تمشي. . تمشي الى ما لانهاية. . انتشر عقلها حولها في كل خطواتها الوئيدة، يفكر في كل شيء أسود حزين. . لم تبق له أدنى مساحة أمل يتلمسها. . تمنت لو غاصت بها قدماها في الارض لتبتلعها، فربما وجدت في قلب الارض ملاذا من قلوب البشر، أو داهمتها سيارة، حتى لو كانت اجرة، لتلقيها في مكان ما، تحت عجلاتها مبعثرة الاشلاء، فربما شعرت براحة اكثر ألف مرة من جلوسها داخلها بجوار سائق على هيئة جميل. . ضلت الطريق اكثر من مرة. . شعرت بغربة قاسية في تلك الشوارع التي حنظتها عن ظهر قلب وكأنها تراها لاول مرة. . أو هي لا تراها بالمرة. . وصلت الى بيتها محطمة منهكة. . أغلقت باب غرفتها والقت بجسدها المهزوم على السرير، وجعلت تنظر له من خلف الزمن والدموع تملأ احداقها. . انتصبت امام المرآة لترى هيكل انثى امامها، يحمل آثار كدمات وخربشات. . وبراكين وقبور وشوارع. . سألت نفسها. . كيف أتصرف وانا احمل هذا الكابوس بمفردي. . لا اجرؤ

على مفاتحة أحد من اهلي . . فهذا جميل الذي اخترته رغما عنهم . .

اطفأت النور . . وكأنها خبرت الطريق . . القت جسدها وسط دهاليز الظلمة على سريرها . . واعتصرت قلبها حتى النهاية . .

في صباح اليوم التالي، بينما كانت تتعانق نسمات الهواء المتكاسل، مع اشعة الشمس الجريئة، لاقتحام منزل نسمة عبر النوافذ التي فتحتها أمها للتو، ثم راحت توقظ إبنتها الصغيرة . . وقد جاوزت الساعة الثامنة صباحا . . صرخت الام صرخة مدوية . . وانتابت البيت حالة من الفوضى والهستيريا واختلط الصراخ باصوات كل شيء في البيت والشارع، وطغى عليها صوت أم كلثوم المنبعث من جهاز تسجيل في محل الادوات المنزلية في الطابق الارض لمنزلها . . وكانت أغنية «أقبل الليل يا حبيبي» . . . . بينما لم تستيقظ نسمة . . فقد وجدتها أمها جثة هامدة . . تحتضن وسادتها المبلولة بالدموع . .

* * *

الشـنطة



كان المساء يلف بظلاله مدينة العريش الساحلية التي ترقد عند اطراف الموج المتلاطم من بحره الابيض المتوسط، حيث يبدو للناظر ان الجزء الساحلي للمدينة لا يزال ينعم بقسط من الضياء اكثر من القسم الذي يبعد عن تلك الامواج. أما الشاطىء فكان مزدان باشجار النخيل المزروعة على طوله، كأنها جنود عملاقة ما برحت المكان وهي تحرس هدوئه، أو هي تخشى سرقة الامواج التي ترقب في كل لحظة انشطارها على الشاطىء النقي ذو الرمال البيضاء الناعمة.. أما الشوارع فكانت أكثر ازدحاما بالمارة والسيارات. لكن ذلك لم يسترع انتباه أحد، فلقد شاهد سكان المدينة الازلية قدوم المساء وذهابه مرات لا يستطيعون لها عدا، وحتى ذلك المؤذن الذي انطلق صوته يشنّف الآذان عبر مكبرات الصوت في الجامع القريب. لم يكن أولئك الذين يحسون به سوى قلائل هم الذين شعروا «بالله اكبر الله اكبر لا إله الا الله» تنفذ الى اعماقهم فتبعث فيهم النشوة الروحية، فيسرعون الخطا الى الجامع، ليزيحوا عن كواهلهم بعض أذى الدنيا. أما بالنسبة للاخرين فإن أذان ذلك المساء كان كالمساء نفسه، فلم ينتبهوا له ولا شعروا بحدوثه.

كان صاحبنا في ذلك المساء لا يزال موجودا في المنزل الفخم الكبير الذي بناه والده من طابقين يتسلل بينهما سلم عريض يصل الطابق السفلي الذي يحتوي صالات كبيرة للضيافة، بالاضافة الى مطبخ كبير وحمامين مع الطابق العلوي الذي يضم غرف النوم، حيث عمد والده الى اتاحة غرفة لكل طفل من اطفاله الاربعة تتسع لعالمه الغض

وافكاره الصغيرة وأحلامه اللانهائية. لكن جاسر هذا اعترض على امتلاكه غرفة واحدة، واقترح ان يستأثر بغرفتين إحداهما للدراسة والاخرى للنوم، وهو لا يزال يذكر كيف كانت تقيم كل الاسرة أكثر من سبعة عشر عاما في احدى الدول العربية، في شقة صغيرة مكونة من غرفتين، وكأن والده اراد ان يعوضهم بعض الشيء عن حياة الازدحام التي عاشوها في سنوات الغربة.

ها هو جاسر ـ الابن الاكبر ـ يدخل الغرفة الخاصة بوالديه والتي لم تكن مغلقة. أشعل ضوءها بعد أن أطلق زفرة عميقة وكأنه القى بحجر ثقيل كان يحمله، وخيّل اليه ان قدماه تتعثران في صخور قاسية صلبة، كأنها شظايا غير منتظمة الشكل، لصعود جبل شاهق، عبر دروب ملتوية. لكنه ما لبث أن انطلق نحو الشنطة السمسونايت التي كان يعلم مكانها تماما متلفتا يميناً وشمالاً وهو يعلم يقينا انه لا يوجد في البيت سواه. فقد ترك والديه واخوته المنزل لحضور حفل خطوبة حاتم، وبقي هو في المنزل معللاً ذلك بانه يريد ان يأخذ دشا ساخنا ثم يرتدي ثيابه للانضمام الى الجميع في حفل الخطوبة.

أدار جاسر ارقام الشنطة السرية التي ما كانت تخفى عليه.. فهذه هي المرة الثانية أو ربما الثالثة التي يختلس منها بعض النقود لتسعفه في الانفاق على زملائه وتجعل منه الشاب الكريم المغداق الذي يشار اليه بالبنان. ثم أنه بدأ في الاونة الاخيرة يشتري بعض الثياب دون الرجوع الى والديه، فقد وضع أولى خطواته في التعامل مع تلك الشنطة السحرية لتلبية احتياجاته، فأمست بالنسبة له عبارة عن بنك خاص.

لكن بدون توقيعات أو أوراق أو موظفين. وهناك فارق آخر، وهو أن البنك يعمل حينما تُفتح أبوابه، إلا ان هذا البنك يعمل بعد ان يتركه أصحابه.

وما أن وضع الرقم الاول.. حتى بدت أمام عينيه صورة العريس حاتم الذي يعمل مدرسا في المدرسة التي يدرس بها جاسر، وتذكر كيف ان الاستاذ حاتم قبل اسبوع طلب من مجموعه من تلاميذه أن يساعدوه بدفع تكاليف الفرقة التي ستحيي حفلة خطوبته الليلة، وقد اقترح التلاميذ أن يدفع كل منهم مبلغ عشرون جنيها، وما لبثوا حين اقترب الموعد ان تنصلوا من اتفاقهم هذا، عدا جاسر الذي سكن في خاطرة أن يكسب ود الاستاذ حاتم صاحب النفوذ الواسع لدى مدير مدرسته، كما اعتبر الوفاء بالعهد هو سلوك ليس له تفسير سوى الرجولة والشهامة. وتذكر انه منذ يومين أخذ الجزء الاكبر من المبلغ للفرقة الموسيقية من نفس الشنطة المملوءة بالاف الجنيهات من النقود التي تخص والده، واعتقد انه بذلك نال رضا العريس حاتم الذي يجلس الان بجوار عروسه في الحفل الذي اعتاد اهل البلدة على حضور أمثاله مرات ومرات، ولا يتغير في كل مرة سوى العروس والعريس والمكان. أما الحضور فهم نفس الوجوه التي تحضر كل عرس، ليس للاستمتاع، وإنما لتحاشي سهام الاتهام بعدم تلبية الدعوة من جهة، وللتحديق في كل صغيرة وكبيرة لدى الاخرين من جهة اخرى. والفرقة غالبا ما تكون نفس الفرقة التي تحيي معظم الحفلات .حتى (الدولسي) وهو أيس كريم معبأ في علب من البلاستيك ايضا لم يبرأ

هو الاخر من صفة التكرار. فتجد أقارب العريس في كل عرس يحملون الكراتين المملوءة بعلب (الدولسي) ثم يندسون بين صفوف المعازيم الجالسين على كراسي خشبية، حيث ترتفع ايديهم مطالبة الغلام بأن يعطيهم مزيدا من الدولسي..

جال جاسر بنظره في اركان الغرفة التي كانت مهيأة بفراش وثير تتوسطه مدفأة تعمل بالغاز الطبيعي يكفي ضوئها عوضا عن حرارتها بان تبعث في المكان جو من الحبور والسعادة والدفء طالما شعر به حينما كان يدعوه والده لمشاهدة برنامج، أو مباراة لكرة القدم عبر شاشة التلفزيون الكبير القابع في ركن غير بعيد من الغرفة.

حمل جاسر شنطة السمسونايت ووضعها على الطاولة الرخامية وجلس على الكرسي أمام جهاز التلفاز المغلق، فلا وقت لاشعاله ومشاهدة القنوات الفضائية اللبنانية المفضلة لديه، ثم عاد يحملق في ارقام الشنطة من جديد، وقد انتابته حيرة غامضة، كمن وقف عند مفترق طرق، لا يدري أي الدروب يسلك، ولا يجد من يهتدي به، وقد شعر بغصة مريرة في حلقه كأنها حالة ندم.

لقد عجب من نفسه كيف ستكون نظرته الى العريس حاتم بعد قليل خالية من أي معنى، وبحث في اعماقه عن معان جديرة بأن يشحن بها عينيه ويبثها اليه، فوجد اعماقه خالية فراغا يملأ الكون. فحاتم هذا فتى عديم الخبرة يافع يحاول عبثا ان يحرر نفسه من قيود صنعتها تراكمات متناقضة لحياته وحياة الاخرين، وحالت بينه وبين الانطلاق معهم.. فاقدا نعمة المرونة في التعامل، حتى لتشعر وانت

تحدثه انك امام محقق في البوليس، لكثرة الاسئلة التي يلقيها، ويعرف اجاباتها سلفا، معتقدا بجهالة انه يحاكي الاذكياء. فقد تربى بعيدا عن الحياة في كنف والدين مسيطرين كباقي الاسر، وفي مجتمع يوحي لابنائه أنهم فوق البشر، وانهم يجب ان يشبوا معصومين عن الخطأ، وانه لا سبيل للفشل في حياتهم، وانهم أكبر بكثير من ان يسخر منهم مخلوق، أو من أن يتعرض لهم الاخرون فينشأون شبانا سذاجتهم تفوق خبرتهم، ويقينهم يفوق علمهم، وكرامتهم تفوق طموحاتهم، وكبرياءهم يفوق ذكاءهم، بدلا من أن ينشأوا على نفس ملؤها الثقة، وعقل واع لا حدود لطموحاته، وتواضع يعيد لهم هدوء الحياة التي سمعوا عنها كثيرا من خلال قصص تروى عن الاجداد. واذ بهم إن اصابهم فشل تهاووا الى الحضيض، وان خُدشت كرامتهم تحولوا الى وحوش كاسرة توقع بنفسها وبمن حولها اضعاف الاذى الذي تعرضوا له، وان اخطأوا ظنوا انهم أصابوا فلا توجد قوة على الارض قادرة على اقناعهم بغير ذلك. مجتمع ليس لافراده هم في الدنيا سوى شيئين: اولهما ملء البطون بالغث والسمين دون التفكير في العواقب. فالشهية لديهم مفتوحة صباح مساء، اما الشيء الاخر فهو انتقاد الاخرين وتعليق كل الاخطاء عليهم. فالويل كل الويل لمن قادته قدماه الى الوقوع في زلة بسيطة أو ارتكب خطأ ما بتوجيهات من الشيطان، أو بسوء تقدير للعواقب، نتيجة تفكير غير مدروس. وما أخصب خيال الناس اذا انسحبت خيوط فضيحة، وما أسرع إنتشار أخبار السوء، وما أيسر تصديق الناس لتلك الاخبار، وعندها يجد الانسان نفسه كالبقرة التي تساق للجزار، ليشارك الجميع في ذبحها، متناسين انهم

يحملون بين أضلاعهم زلات واخطاء تثقل كواهلهم، لكنهم يحاولـون اخفائها عن المجتمع بكل الطـرق. ولم تكن خبرة عشرة سنين في مهنـة التـدريس وفي الحيـاة كـافيـة لتسعف حـاتم للتخلص من سـذاجتـه المتأصلة، وللتدرب على قياس الامور بحقيقة حجمها دونما تهويل.

شعر جاسر ان الوقت يمر بسرعـة البرق، وان كثيرا من الاعـمال تنتظره من اهمها سحب كمية اخرى من النقـود، ثم اللحـاق بـالاهـل والاصدقاء لحضور العـرس.. اسرع الى وضـع الـرقم الثـاني للشنطـة تأهبا لفتحها. واذا برنين الهاتف يفجر سكون الغرفة، واذ المتحدث هو العم ابراهيم..

ألو..

ألو..

مرحبا يا جاسر.. أين والدك؟

أهلا يا عم ابـراهيم.. والـدي ذهب مـع الاسرة لحضـور حفـل خطوبة حاتم.

ولِمَ لم تذهب يا جاسر؟

اني ارتدي ملابسي وسوف الحق بهم حالا.

مع السلامة..

مع السلامة..

وما ان وضع سماعة الهاتف حتى اخذ يحدث نفسه.. آه ما اطيبك يا عم ابراهيم.. انه رجل بمعنى الكلمة، فهو كريم وشجاع ومقدام.

وكم اظهرت مواقف عديدة له حجم هذه الرجولة، وكم هي عظيمة مروءته، وكيف انه شجع والدي على الاستقرار في الوطن الأم، والتخلي عن الغربة نهائيا، ووقف معنا جميعا مواقف لا يمكن ان ننساها. كما انه صديق والدي منذ الطفولة، ومن حسن الحظ انه يقطن الى جوارنا، وقد اشترك مع والدي في اعمال كثيرة كان اخرها اقامة متجر كبير في البلدة لتجارة الاحذية، يقوم والدي على ادارته فعليا، وانه يحضر الاموال التي يحصّلها من المتجر ليضعها في كيس نايلون اخضر اللون، في ركن من اركان تلك الشنطة السحرية.

شعر جاسر في تلك اللحظات ان الوقت يمر ببطء شديد. وانه اختصر حياة بأكملها في لحظات شرود، قفز من خلالها عبر أثير الزمن عدد غير قليل من السنوات الى الوراء ليتذكر كيف كان طفلا مدللا، وان والديه لم يبخلا عليه بشيء، فقد كان الثمرة الاولى لزواجهما، لذلك فقد حرص والده على تعليمه منذ الصغر فن الحياة، كان يصطحبه في نزهات كثيرة، وكان يوافقه على كثير من الرحلات مع زملائه في المدرسة، وكان يطمح أن يجعل منه صديقاً اكثر منه ابناً حاثاً إياه على الجد والمثابرة والاخلاص والامانة والصدق والرجولة. لقد كان يغمره واخوته بعطف وحنان كبيرين ويهتم بشؤونهم، ويتابع نشاطهم المدرسي، وكان يخصص لهم يوم من كل شهر لممارسة المصارعة معه، حيث يعمد الى الاستقلاء على سريره الكبير بعد ان يغلق الغرفة، ثم يدع اطفاله يتصارعون معه ويضربونه كل حسب قدرته، علّ ذلك يفرغ شحناتهم خلال الفترة الماضية. وكانوا يشعرون

اثناء ذلك بسعادة غامرة حيث تتعالى ضحكاتهم وصيحاتهم مقلدين «ايجور» المصارع العالمي الشهير صديق الاطفال. وغالبا ما طلبوا من والدهم ان يكرر تلك المصارعة اكثر من مرة في الشهر.

وبينما هو مسترسل في شروده، إذ سمع صوتا خفيا تهادى اليه من خلف الزجاج، رفع رأسه لمعرفة مصدر الصوت، وقد انتابته حالة من الخوف والتلق، ما لبثت أن زالت، بعدما تبين انه صوت الهواء الذي كان يداعب الزجاج. نظر مليا وكأنه رأى وجه والده خلف ذلك الزجاج. ثم ترك العنان لنفسه يحدثها..

آه يا والدي ما أطيبك، انه لا يبخل علينا بشيء، حتى بوقته الذي يعطينا منه الكثير. وقد تعلمنا منه حب الناس واحترامهم، وتعلمنا منه الاخلاص والتفاني. حتى الصلاة التي جاهد لكي نمارسها ونعتادها، نؤديها بين الحين والحين خشية من غضبة. اما الصدق فهي الخلة التي لم استطع تعلمها منه.. اني أكذب، وكل كذبة تقودني الى كذبة اخرى وكأن الكذب مربوط بسلاسل خفية غير مرئية، ما ان انتهيت من واحدة حتى قادتني للاخرى.. وهكذا قادتني احداها الى السرقة، لماذا أسرق؟.. سأل نفسه.. وكل ما احتاجه هو مصروفي اليومي فقط كباقي التلاميذ..

تراءى له كل هذا ويده تضع الرقم الثالث للشنطة. وما أن فتحها حتى شعر بدوار شديد وصداع لم يشعر بهما من قبل..

حملق في ارجاء الشنطة فوجد الكيس الاخضر الذي يخص متجر والده مع العم ابراهيم، ثم وجد مظروفا اخر كُتب عليه (أمانات)

تخص بعض اقارب والده. وتذكر كم يحب والده اقاربه، وكم هم يبادلونه الحب والثقة.

عبثت يداه بمحتويات الشنطة فوجد شنطة صغيرة داخلها، بها بعض النقود التي تخص والده.. بدت عليه علامات الحيرة.. من أين يأخذ النقود هذه المرة؟ هل من نقود والده التي لا يبخل عليهم بها؟ أم من نقود أقارب والده التي ائتمنوه عليها؟ أم من الكيس الاخضر الذي يخص متجر الاحذية لوالده والعم ابراهيم الذي يحبه حبا شديدا..

زادت شدة الدوار في رأسه.. نظر مليا كأنما تراءت له صورة شيطان يقبع في بعض جنبات الشنطة، مرشدا إياه عن المكان المفضل.. زادت شدة الدوار في رأسه وارتفعت حرارته وبدأ يتفصد عرقا..

أغلق الشنطة اللعينة بهدوء، وهرول مسرعا لحضور حفل الخطوبة..

العروسان جالسان على المنصة، والحضور من نساء ورجال يجلسون على الكراسي الخشبية، والغلمان ينسلون بين الصفوف يوزعون (الدولسي..) والموسيقى تطلق العنان لآلاتها القوية.. جال بنظره في كل مكان.. رأى والده يجلس في ركن بعيد.. أقبل عليه بشغف كأنه يراه لاول مرة.. سلم عليه، فاحتواه والده بين ذراعيه والدموع تتراقص في عينيه، فهو ينتظر الوقت الذي ينضج فيه جاسر ليقيم له حفلا كهذا الحفل، وليزوجه أحلى عروس، فهو إبنه الكبير، وحبه له لا يوصف، وثقته فيه لا حدود لها..

إختصر ذلك كلـه في كلـمات طغى عليهن صـوت المـوسيقى. . عقبالك يا جاسر.

عادت الاسرة الى البيت في وقت متأخر بعـد نهـاية الحفـل، قـال الوالد لاولاده وصوت الموسيقى لا زال يصـدح في رأسـه، وقـد بـدت عليه علامات الارهاق. . . تصبحون على خير، دلف كل الى غرفتـه، وقعت عين الوالد على الشنطة، وادرك العلاقة بين تغير مكانها وتـأخـر جاسر عن حضور الحفل، لقد فهم القصة، فتح الشنطـة وعـدّ النقـود فوجدها كما هي. . أغلق الشنطة بهدوء وكأن شيئا لم يحدث. .

لم يعد جاسر لفتح الشنطة بعد ذلك. . فقد استوعب الدرس.

* * *

سهام الشيطان



صديقي العزيز.. مرّت فترة كبيرة جاوزت العامين دون ان نلتقي، أو نتبادل رسائل.. وانقطعت أخبارك عني.. مما زاد شوقي لك، وتلهفي لرؤيتك.. أما أنا فالتمس لك عذرا بالانشغال في إعداد رسالة الدكتوراة، التي اعجبني كثيرا موضوعها حول «شجرة الزيتون.. زيتها وفوائدها».. وهو موضوع شيق ومفيد، يجهله معظم الناس في وادي النيل الذي تنتشر في أركانه المختلفة مساحات شاسعة من تلك الاشجار المباركة.. ولكني ايضا التمس لديك عذرا لنفسي، بسبب سنوات الشتات والظروف الجديدة.. حيث طوال هذه الفترة ظل طيفك يلازمني وصوتك الجهوري يداعب مسامعي.. وهاأنا اكتب لك من جديد على أمل التواصل والاسترسال.

تعلم يا صديقي أني انشأت مكتباً جديداً للاستيراد والتصدير في العريش.. مر على افتتاحه قرابة العامين.. اقتحمت خلالها التجارة من أوسع ابوابها، فالتجارة مربحة وفيها بركة.. وتعرفت على ناس كثيرين، تجار وموظفين وعمال واصحاب مصانع وقيادات، وكونت صداقات جمة، وقد حفلت تلك الفترة بأحداث كثيرة، ساهمت الى حد كبير بانخراطي في مجتمع مليء بالمتناقضات.. لكنها على أية حال كانت تجربة رائعة غنية، اختصرت عشرات السنين، وكنت ومازلت اتاجر في معظم الاشياء.. زيوت، صابون، دقيق، اراضي حتى حجارة الجبل..

تعمل في مكتبي سكرتيرة.. على درجة عالية من الجمال الآخاذ.. يحسبها كل من يراها دون ان تتكلم انها انجليزية.. حيث العيون

ازرقاء والشعر الاشقر، والوجه الابيض الدائري المائل للاحمرار، والذي يحمل انف صغير، وثغر أصغر مختبىء خلف شفتان غاية في الرقة.. قوامها ممتلىء بعض الشيء مما يزيد في أنوثتها.. انهت سنوات الجامعة في القاهرة.. ثم عادت لتقيم مع أهلها في العريش انتظارا للوظيفة الحكومية التي قد تغيب سنوات وسنوات.. وانتظار ايضا لإبن الحلال..

السكرتيرة «إيمان» دمثة الاخلاق، محترمة، تعشق الموسيقى الاجنبية الكلاسيكية وتمضي معظم وقتها صامتة.. لا تفارقها ابتسامتها وهدوئها.. تلبس ثياب يتناسب ذوقها مع ألوانها.. حتى تحسبها اذا مشت امامك أنها مضيفة تعمل على احد خطوط الطيران، خارجة للتو من صالة الوصول في المطار بعد رحلة مضنية على متن احدى الطائرات..

المكتب يعمل والحمد لله ويغطي مصاريفه وزياده.. وقد افتتح بجواري مكتب اخر يمارس النشاط ذاته.. فهذه سمة راسخة من سمات أهل العريش.. إذا افتتح أحدهم محل لتجارة الاحذية مثلا، وكان موقعه بين محل كشري ومحل لتجارة الاعشاب.. تصل الى مسامع الناس اخبار محل الاحذية الجديد.. فيبدأ الناس بالتكدس على محل الاحذية الجديد لمعرفة الاسعار والانواع.. فيظن اصحاب المحلات المجاورة ان تجارة الاحذية هي الرائجة والافضل.. وان معظم الناس يأتون لشراء الاحذية لهم ولزوجاتهم ولاولادهم.. بخلاف الكشري أو الاعشاب التي لا يتذكرها احد الا حين يطرق الجوع

معدته، أو يصاب بأمراض تلجأه للاعشاب. . وبحسابات بسيطة يتم خلالها افتراض مكسب معين لكل حذاء ثم ضربه في عدد الاحذية التي تباع في اليوم الواحد. . يكون المكسب هائل. . ولا يمضي اسبوعان حتى تجد ثلاثة محلات متجاورة للاحذية. . لا يقف على إحداها أي زبون. .

وقد ذكرني هذا حينما احصينا سويا، عدد صالات البلياردو التي افتتحت فجأة منذ خمس سنوات، وكأن اصحابها اشتروا بذورا للبلياردو ونثروها في شوارع العريش، لتثمر بعد فترة صالات، بلغ عددها ستة عشر في وقت واحد، وهي في الحقيقة بدأت بواحدة. . ثم اصابت العدوى اصحاب الانشطة الاخرى، فغيروها لتنتشر رياضة البلياردو الراقية كالجدري المعدي بين احياء وشوارع البلدة. . حتى تظن من كثرة المترددين عليها ـ ومعظمهم من الطلبة والمكانيكية وبعض العاطلين عن العمل ـ ان الامهات يرضعن اطفالهن بلياردو في سنوات عمرهم الاولى!!

اسمح لي صديقي العزيز أن أعود بك الى شيخوخة خريف ١٩٩٩م، وبالذات في اواخر أيام شهر اكتوبر. .

فقد نهضت مبكرا في صباح ذلك اليوم، وبعد ان تناولت الافطار مع زوجتي، حيث الاولاد نائمون، انطلقت الى مزارع الزيتون التي اتفقت مع اصحابها على شراء ثمارها، لاتفقدها. . واستعين بعمال لجني محصولها، استغرقت الجولة قرابة خمس ساعات، زرت خلالها اكثر من عشرين مزرعة منتشرة في اطراف مختلفة من مدينة العريش المليئة بمزارع

الزيتون المنتشرة حول اطرافها ومداخلها من كـل الجهـات، لتشكـل في مجملها ما يشبـه المجمعـات الخضراء أو أسـوار القـلاع والحصـون التي تحتضن في ثناياها، وباشكال متوازية، صفوف الاشجار الواقفة بشموخ وكبرياء وتحد، كأنها جنود خضر زرعت للدفاع عن المدينة وحمايتها من الزحف الصحراوي. وانت تعلم ياصديقي ـ وقد يفيدك هذا في رسالة الدكتوراه ـ أن شجرة الزيتون من الاشجار العملاقة التي يمكن لها ان تصمد ببطولة جريئة وكبرياء نادر، في مواجهـة أشـد الظـروف قسـوة وشراسة ووحشية، حيث الماء القليل المتبقي في جوف الارض، والذي تزيد ملوحته احيانا كثيرة عن ملـوحـة مـاء البحـر، وشـح الامطـار، والظروف المناخية الجافة الاخرى.. بالاضافة الى المعاملـة القـاسيـة من بعض اصحابها، الذين يذهبون ـ بدون خجل ـ في موسم الحصاد فقط لجني المحصول، دون الاهتمام بها ورعايتها.. ومع ذلك تجدهـا تحتمـل كل ذلك، وتقف وسـط الارض كـالام الحنـون، تمنـح دون مقـابـل، وتعطي بكرم يدفعك للتساؤل.. أهو الاصالة التي جبلت عليهـا تلك الشجرة؟ أم وفاء منها للاباء والاجداد الذين قدروها حق قدرها، ومـا بخلوا عليها يوما ما بجهدهم وعرقهم.. حتى لتشتم من بين اوراقهـا رائحة هؤلاء العظـماء الـذين ذهبـوا وتـركـوهـا خـالـدة شـاهـدة على حضارتهم ورجولتهم..

في المساء كان مكتبي يكتظ بأنواع مختلفة من الرجـال، تفـاوضت مع اصحاب المزارع على طريقة الدفع، بعد تـوقيـع العقـود معهم، ثم تباحثت مـع العـمال الـذين سيبـاشرون في صبـاح اليـوم التـالي قطف

الـزيتـون، واخبرتهم اني سـأمـر عليهم لانفقـد طـريقتهم في الجمـع والتعبئة. . وما ان خرج آخرهم. . حتى شعـرت أن الارهـاق والتعب بدءا يتسللا الى جسمي، طلبت من السكرتيرة إيمان ان تصنع لي فنجان قهوة.

وبينما أنـا مشغـول بترتيب أوراقي إستعـدادا لتـوديـع ذلك اليـوم العصيب، إذ بإيمان تخبرني ان إمرأة تجلس في الاستقبال تريد مقابلتي. . نظـرت في سـاعتي فـوجـدتهـا بـرحت العـاشرة مسـاء. . وهـذا وقت انصراف السكرتيرة. . اطرقت لها رأسي بأن تدعها تدخـل. . ومـا هي الا لحظات حتى وجدتني فجأة امام سهام. .

اهلا يا سهام. .

اهلا يا منصور. .

تفضلي اجلسي. .

طرقت السكـرتيرة بـاب مكتبي بهـدوء، وضعت فنجـان القهـوة امامي ثم نظرت الى ساعتها. . هذا وقت ذهابي، هل تريد مني شيء؟

لا يا إيمان. .

الى اللقاء. .

الى اللقاء. .

ومـا أن أغلقت إيـمان خلفهـا البـاب. . حتى هبّت سهـام واقفـة تهرول نحوي كالمجنونة فاتحة ذراعيها وراحت تقبل ما تستطيع لمسه من جسمي وملابسي. . وانا أحاول الابتعاد عنها، فقد فاجأني تصرفهـا ولم

أدر ماذا أفعل، وما هي إلا لحظات، حتى جلست سهام على أحد المقاعد الوثيرة في المكتب متوترة الاعصاب ترتجف، وأنا أنظر لها بخوف مجهول، مدت يدها لتنتزع لفافة تبغ من علبة سجائري الموضوعة أمامي، ثم فتحت حقيبتها، وتناولت الولاعة التي تحتفظ بها، فهي لا تحمل سجائر خشية ان يراها أحد، فقط تحتفظ بالولاعة، أصابني توتر حذر، وارتباك مؤقت، شعرت بعدها ان التعب والارهاق لم يعد لهما وجود، وبدأ روعي يهدأ شيئا فشيئا لاكتشف بنظرة جانبية بريق شديد في عينيها، كان يبشر بسيول من الدموع الجارفة، التي ما لبثت أن انهارت على خديها في صمت موحش.

مالك يا سهام.. ماذا حدث لك.. هل انت بخير؟

قالت بنبرة يعلوها الفرح.. كنت اخشى ان تتجاهلني.. فقد علمت بمكتبك الجديد هذا منذ وقت قليل، وكان بودي أن أبادر بالحضور فورا لولا خوفي من أن تكون قد نسيتني.. وقد طار قلبي من السعادة ولم أصدق نفسي حينما سمعتك تنطق اسمي، ولولا وجود السكرتيرة.. لاطبقت عليك واحتضنتك بكل كياني واحاسيسي من أول لحظة رأيتك فيها..

صديقي العزيز.. سهام هذه كانت مجرد زميلة لنا أيام الدراسة في المعهد.. ولا أعتقد انك تذكرها، لان علاقتنا بها كانت سطحية.. لا تبعد كثيرا عن القاء التحية، أو لقاء عابر من خلال رحلة نهرية أو محاضرة ما.. أنا اذكرها فقط للشبه الواضح بينها وبين اختي الكبيرة، فقد كان جمالها متوسط، سمراء، لها قوام طويل ممشوق، ترتدي الزي

الاسلامي «الحجاب» كباقي البنات، وهو لباس ليس بالضرورة ينم عن وعي ديني، أو ثقافة عامة، بقدر ما هو موضة لا أكثر ولا أقل، وترتديه النساء في العريش لتجنب السنة الناس ليس إلا.. وترتديه البنات اذعانا لرغبات الاباء، أو الاخوة الذكور، فالرجولة هنا ـ وما اظنك نسيت ـ هي التحكم في الانثى بشتى الطرق، من قبل الأب والاخ والزوج، وإصدار الأوامر التي غالبا ما تتركز على اللباس، أما السلوك ـ وهذه سمة المرأة في كل مكان ـ فهي اقدر على الاختباء خلف اللباس، لتفعل ما تشاء.. بعيدا عن العيون، طالما هي متوشحة بلباس الحشمة..

بعد حصول سهام على البكالوريوس اشتغلت في ديوان عام المحافظة.. ثم مرت سنين بطيئة الى ان جاء إبن الحلال.. مفتش تموين يكبرها بعشر سنوات.. بعد علاقة حب باهتة عادية، لتتوج تلك العلاقة بزواج تقليدي، أثمر عن طفل تتركه اغلب الوقت عند امها التي تقيم معهم في البيت.. وقد مر على هذا الزواج اكثر من سبعة أعوام..

قالت سهام.. أكثر من عشرة أعوام وانا اتابع أخبارك، ولا أعرف أين أعثر عليك.. أحيانا أسمع انك مقيم في القاهرة.. وانك تعمل في المقاولات.. ثم تمر سنة أو اكثر لاسمع انك مقيم في الاسكندرية أو الاسماعيلية.. وكنت طوال هذه الفترة لا تغيب عن فكري وبالي.. هل تذكر أيام المعهد.. هل تذكر تلك الورقة؟.. واخرجت من حقيبتها صورة لنصف طفل وقالت.. هل تذكر رحلة

القناطر . . حيث كنا في السنة الرابعة بالمعهد، حينما قطعنا صورة الطفل الى نصفين . . احتفظت انا بنصف الطفل واعطيتك النصف الثاني لتحتفظ به . . علّ الايام تجمعنا لنكمل الصورة من جديد، ونلتحم في جسم واحد ومستقبل مشترك . . لننجب بدل الصورة طفل كامل من لحم ودم يملأ علينا الحياة . .

قلت لها هذا صحيح . . ولكني - ياصديقي - في الحقيقة لا أكاد اذكر شيئا عن تلك التفاصيل الصغيرة . . فالزمن زحف بنا خمسة عشر عاما، وترك لنا صور باهتة لذكريات الدراسة، والاحداث الماضية تفقد بريقها بمرور الوقت، خصوصا اذا كانت العلاقات عادية . . هذا بالنسبة لي . . ويبدو أن الامر كان مختلفا بالنسبة لها . .

لكنك يا سهام متزوجة منذ فترة . . وأنا ايضا متزوج وعندي ثلاث بنات وولد . . ويكاد أكبرهم يدخل الجامعة . .

لكني احبك . . قالت سهام . . ولا أريد منك اي شيء . . فقط ان تسمح لي بزيارتك ورؤيتك . . ولن اثقل عليك . . فأنا انتظر هذا منذ زمن بعيد . .

قلت لها محاولا امتصاص مشاعرها وتحويلها الى إتجاه اخر . . ايام شقاوة المعهد كانت ايام جميلة ولها ذكريات لا تنسى . . وقد اصبح الان لكل منا طرف اخر وشريك ثان . . وحياة مستقلة . . ويسعدني كثيرا ان تزورينا في البيت مع زوجك . . فانا احبك كأختي تماما . . ولن تنتهي هذه العلاقة ما حييت . .

كانت سهام ترفض بداخلها ما تسمعه مني، بل انها ودت لو أنها

ما سمعته أصلا، فقد كانت احلامها أكثر بكثير مما رسمته لها . . وطموحها الدفين غير المعلن لا حدود له في تغيير هذا الهراء الذي أحدثها عنه الى ما تريد . . ولو باستخدام اسلحة اغراء اخرى في المستقبل القريب . .

صديقي العزيز . . أعلم اني اطلت عليك، وهذا عهدي بك . . فكلما مررت بازمة أو مشكلة ما، كنت الصدر الحنون الذي افرغ شحناتي له واستسلم لنصائحه الصادقة . .

توالت زيارات سهام بين الحين والاخر على مكتبي موهمة السكرتيرة بأنها قريبتي . . هكذا قالت لها في اول مرة . . وكثرت تلك الزيارات لتلك القريبة المزيفة . . معللة ذلك بحاجتها الى اوراق مقاس معين، أو استعمال الهاتف للاتصال بأقارب لها في المحافظات، واحيانا كثيرة كانت بغرض البحث في كومة الصحف والمجلات لتختار احداها تأخذها معها البيت لتتسلى بها اثناء الليل . . وتكون حجة لعودتها مرة اخرى . . على سبيل اعادتها!

وقد حاولت إبعادها عن حياتي بأسلوب لا يخلو من الدهاء والمكر . . فخبرتي البسيطة علمتني ان المرأة اذا تملكتها رغبة ما، قد تعاهد الشيطان في الحصول عليها . . أما اذا فشلت فيكون انتقامها عظيم . . وقد يحدث على أقل تقدير ان تنغص عليك حياتك . . وتفسد جوك الاسرى بالشائعات أو الاتصالات الهاتفية المبتورة . . لذلك كنت اشجعها على القراءة والكتابة والخروج للنزهة مع زوجها، وكثيرا ما كنت أتهرب من موعد للقائها متعللا بالانشغال الدائم في العمل، أو

مشاكل الاولاد، أو حالة والدتي المريضة السيئة التي تأخذ الجزء الاكبر من وقتي.. وأحيانا كثيرة كنت أتقمص شخصية رجل الدين، فانبري اوضح لها مكارم الاخلاق، وكم سردت لها قصص عن زوجات خنّ أزواجهن، وكان الله لهن بالمرصاد، فأصبن بأمراض مهلكة لم يسلمنّ منها ولا من فضائحها..

الى ان جاء ذلك المساء في أواخر أيام اكتوبر الماضي.. حيث كنت اناقش كل التفاصيل مع مدير احدى معاصر الزيتون، وبعد ان اتفقنا على موعد تسليم أكياس الزيتون، والوقت الذي تستغرقه عملية العصر، والمصاريف الاجمالية، همّ الرجل بالانصراف، وودعته على أمل اللقاء به صباح اليوم التالي.. ثم تبعته السكرتيرة إيمان بالانصراف في موعدها عند العاشرة مساء، وبقيت في المكتب اعيد حساباتي المالية وأشرب فنجان القهوة الذي أعدته إيمان قبل إنصرافها.. وبينما تأهبت لمغادرة المكتب، سمعت طرقات رقيقة على الباب، وبعد لحظات كنت افتح الباب لأجد امامي سهام ترتدي عباءه سوداء وتدخل المكتب مسرعة قبل ان آذن لها بالدخول..

مساء الخير يا منصور..

مساء الخير يا سهام..

جلست سهام على المقعد المقابل لمكتبي.. وجلست على المقعد المجاور، حيث لا داعي للجلوس على كرسي المكتب بعد انتهاء العمل.. مدت يدها تستعرض المجلات الموضوعة على الطاولة المقابلة لها وهي تتمتم ببعض الكلمات.. ابوه.. آه.. المجلة.. المجلة.. ثم

تساءلت بفتور واضح. . ماذا يوجد عندك من مجلات أو صحف يمكن قراءتها. . وقبل ان أجيبها. . رمت المجلة التي كانت بيدها الى اقصى ركن في الغرفة، ونهضت واقفة، وجعلت تتحرر شيئا فشيئا من العباءة وتدريجيا رأيت العباءة ترقد الى جوارها على الكرسي، ليبدو الفستان الشفاف الذي التصق بها، وهو يظهر من جسدها اكثر مما يخفي، وأكاد اجزم ان أي امرأة لا يمكن ان تلبس مثله الا في غرفة نومها. .

قالت سهام. . إسمع. . أنا من زمان سايباك على كيفك ومزاجك. . وكدت اضيق بتجاهلك لي. . لكن المرة دي. . مش ح اسيبك. . زوجي سافر لحضور مأتم عند أهله في المنصورة. . وحتى لو كان موجود فانه ينام كل ليلة كالقتيل، قبل العاشرة بعد ان يملأ بطنه بطعام العشاء الثقيل الذي يتربع الفول على قمة محتوياته. . وأظل ساهرة طوال الليل وانا متعطشة لمسة رجولة. . زوجي مريض جنسيا منذ سنوات، وتعتصرني الوحدة والغربة لتقتلني وتمزقني مرات ومرات. . تصور انه لم يلمسني منذ ستة أشهر. . أشعر بحاجة ملحة لتلبية رغباتي. . أبحث عن شخص يروي عطشي، وتظل علاقتي معه طي الكتمان، ولا أخشى من الانزلاق وراء شهوتي، أكثر من خشيتي من شخص أبوح له بكل ما يعتريني، ثم أجده وقد باح هو الاخر بكل ما بيننا. . أشعلت سيجارة وراحت تنفث دخانها امام عيني وقالت وكأنها تختبرني. . لكني قد أندم، وساعتها سأحتقر نفسي. . لكن ماذا افعل. . اني أموت في اليوم مئة مرة. . انا امرأة. . هل

تفهم.. امرأة مثل كل النساء!

سرت في اوصالي رغبة جامحة في لمسها، ولملمت افكاري المبعثرة لاحصرها في مشهد أمام عيني، ابتلعت ريقي أكثر من مرة.. واستدارت عيناي.. وشعرت ان عقلي قفز من مكانه ليستقر في ركن ما بين فمي وعيني.. لحظة ضعف اختصرت سنوات بأكملها.. حدثتني نفسي الخبيثة.. ماذا لو طاوعتها هذه المرة، مرة واحدة فقط.. ثم ماذا بعد.. انه طريق طويل.. قد تفرحني بدايته.. لكني لا أعلم له نهاية.. انه طريق الشيطان.. ثم اني كثيرا ما وعظتها وحدثتها عن مكارم الاخلاق وشرور الزنا.. أي شعور يصيبني وانا أرى هذا العملاق يسقط أمام ناظري.. ثم أراها وقد نالت ما تسعى اليه.. تضحك باستخفاف وسخرية لانتصارها وتحطيمها العملاق الراحل.. كيف اسمح لنفسي بالسقوط والهزيمة، وانا أعلم كل ذلك.. لكنها حركة واحدة فقط.. نصف حركة فقط.. لو مددت يدي فقط.. لانتهى كل شيء.. وعلى النور نفضت باقي المشاهد الاخرى العالقة في ذهني.. وخشيت الاسترسال.. لانه لو حدث لما كتبت لك.. ولكتبت شهادة سقوطي بيدي التي مددتها..

ادركت ساعتها اني مقبل على محنة كبيرة.. اكبر مما أتخيل.. تذكرت الحكمة التي تقول: ليس الحكيم الذي يحتال للأمر اذا وقع.. ولكن الحكيم الذي يحتال للامر ألا يقع!

دارت الدنيا من تحتي ووجدتي كالغريق الذي يبحث عن قشة يتعلق بها..

سرحت بفكري كثيرا للبحث عن حل. . وفجأة وجدتني أقف عملاقا مزهوا، لأودعها شامخا صلبا. . بيد باردة، وروح فاترة، ادركت سهام بعدها ان سهامها اخطأت الهدف، وانها ضلت الطريق. . بحثت في اجزائها عن شيء ما، يحجب عنها وميض الهزيمة. . لكنها لم تجد. . وآثرت الانسحاب في صمت مهزوم!

وها أنذا امسك القلم، لكي أزف لك انتصاري على نفسي. . وانتصاري على الشيطان، الذي لا أدري ما المحطة المقبلة التي سألتقي معه فيها. . لكني اعاهدك كما كنت ـ وسأظل ـ رجلا وفيا بالمعنى الشامل، مخلصا لنفسي ولديني ولاسرتي. . مناشدا اياك ان تبقي على المراسلة بيننا. . بعدما اتضح لك سبب انقطاعي وعزوفي عن التواصل في الفترة السابقة!

المخلص لك. . منصور

اغسطس ٢٠٠٠م

* * *

الرجال الطيبون



قالت له زوجته بعد ان انتهى من صلاة العشاء.. لماذا لا تذهب وتشتري لنا ربع كيلو لب نتسلى به.. نظر الى عقارب ساعته فوجدها تترنح نحو الحادية عشرة ليلاً، الوقت لازال مبكرا، قال حسنا سأذهب، فمحمصة (ابوشعبان) لا تغلق ابوابها قبل الثانية والنصف صباحا.. توجه الى سيارته التي تقف أمام البيت.. أدار محركها وقد عنّ له ان يستمع لصوت ام كلثوم، فهو مناسب جدا لهذا الوقت من الليل، حيث نسمات الهواء الرطب تداعب أوراق الاشجار التي تكاد تلامس سقف السيارة العلوي، دس يده بين كوم شرائط التسجيل الموضوعة بجانبه، رفع احدها امام عينيه محدقا فيه لمحاولة قراءة اسم الاغنية، فمعظم الشرائط لام كلثوم، وقع بصره على اسم الاغنية.. «يامسهرني».. آه يالها من اغنية رائعة.. في كلماتها والحانها، وضع الشريط في جهاز التسجيل وفتح زجاج الشباك المجاور له.. وانطلقت السيارة ببطء يتراقص مع نغمات الاغنية، ومع تلك النسمات البارة التي جعلته يشعر وكأنه يستطي غيمة تحلق به عبر الفضاء الواسع، في شوارع مدينة العريش الهادئة التي يعشقها ويعشق طقسها وبحرها وشاطئها وهدوئها..

بعد دقائق معدودة وصل زايد الى محمصة (ابوشعبان) في قلب المدينة، صوب الجانب الشرقي لموقف السيارات، واشترى ربع كيلو من اللب السوبر الطازج الدافىء، ولم يمنعه صوت ام كلثوم الشجي من تناول بعض حبات اللب في طريق العودة الى البيت..

جلس مع زوجته امام جهاز التلفزيون وتناوب الاثنان على طبق

اللب الموضوع امامهما على الطاولة الرخامية الصغيرة، حيث اختلطت اصوات قرقعات التسالي مع اصوات الفيلم العربي الممل. .

سرح بفكره قليلا، حيث بدى له طيف حسين إبن عمه في القاهرة. . فقد وعده في آخر لقاء لهما منذ شهر، أن يحضر له لب من العريش. . وبعدها سافر حسين الى دبي في زيارة عمل، وقد عاد منذ اكثر من اسبوعين. . أما حسن شقيق حسين التوأم فلم يره منذ أكثر من ثلاثة اشهر، وها هو الاخر قد عاد من رحلة طويلة شملت الاردن والمانيا ودبي والصين. . أحس برغبة شديدة في رؤيتهما، فهو يحبهما كثيرا، ويشعر انهما اخوته بحق، لماذا لا يفكر في الذهاب الى القاهرة صباح الغد في الاوتوبيس الذي يغادر في الثامنة صباحا. . ويمضي معهم معظم اليوم ثم يعود في مساء اليوم نفسه. .

لاحظت زوجته حالة الشردان التي تنتابه. . قالت له بلكنتها الاردنية. . مالك يازلمة سارح. . لوين وصل فكرك. . وقبل ان يجيبها، إذ بجرس التليفون يقرع. .

ألو. .

ألو. .

مساء الخير يا زايد. .

أهلا ياكيمو. .

عندي مشوار بكره صباحا للقاهرة. . أي خدمة من هناك. .

يا سلام. . والله انت ابن حلال مصفّي، افكر في الذهاب الى

القاهرة صباحا، وكنت ناوي اركب الاتوبيس، هل أثقل عليك لو سافرت معك؟

لا يابطل.. ده يسعدني جدا.. وعلى فكرة عندي خمس شرايط لام كلثوم.. سأتصل بك الساعة سبعة ونص الصبح علشان تجهز نفسك..

اذن اتفقنا..

قالت له زوجته.. اتفقتوا على ماذا؟ ومن الذي كان يحدثك؟..

قال لها انه المهندس كامل قريبي وصديقي نازل القاهرة بكره.. وكنت افكر قبل قليل في الذهاب الى القاهرة حتى التقي حسن وحسين، لذلك اعتقد انها ستكون رحلة جميلة في صحبة كامل وفي لقاء اولاد العم...

توقف عن تناول اللب بعد ان انزل قدماه من على المنضدة التي أمامه، تناول كأس الماء الموضوع عليها، وارتشف قليلا منه ليمضمض فمه ثم ابتلع ما تبقى من الماء.. وهب واقفا.. تناول مفتاح السيارة من جيبه قائلا لزوجته.. سأذهب لاحضار شوية لب علشان اخدهم معايا لولاد عمي..

عاد الى محمصة (ابوشعبان).. وكانت الساعة غادرت الواحدة صباحا..

قال له صاحب المحمصة.. إيه ده. أكيد اللب عجبك.

قال له زايد هذا صحيح، اعطيني نصف كيلو آخر وأرجو أن

تهتم بتغليفه لاني سأخذه معي الى القاهرة . .

في صباح اليوم التالي اصطحب كامل في سيارته زايد في طريقهما الى القاهرة التي تبعد حوالي ٣٥٠ كيلومترا عن العريش، تتوسط المسافة تقريبا قناة السويس . .

كان الجو مائلا للبرودة في الصباح، والارض مبللة بالرطوبة والندى كأنها امطرت في الصباح الباكر . . تحدثا كثيرا وكثيرا في كل شيء بعد ان قطعت السيارة تقريبا ربع المسافة . .

مد كامل يده لانتزاع شريط الكاسيت . . سأله زايد عن السبب قال . . اشعر ان السيارة على غير ما يرام، وما هي الا لحظات قليلة حتى تراجعت سرعة السيارة شيئا فشيئا الى ان توقف محركها تماما، ثم توقفت على الجانب الايمن من الطريق . .

نزل الاثنان من السيارة . . المنطقة مهجورة، لا ناس، ولا محلات، ولا عمارات. فقط سيارات تنطلق كالرصاص مسرعة على الشارع الرئيسي . . فتح كامل غطاء السيارة الامامي . . اخذ الاثنان ينظران الى المحرك والاسلاك بشذر، فكلاهما لا يفهم شيء عن الصيانة والميكانيكا . . ومضى بعض الوقت، حتى لاح لهما في الافق شخص يسير مقتربا نحوهما . . انه رجل يحاول ايقاف سيارة لتنقله الى العريش، اقترب منهما وسألهما عن العطب، قالا له في صوت واحد . . ان السيارة تعطلت ولا نعرف السبب، مد الرجل يده، وعبث قليلا في بعض الاسلاك، ثم اخرج يده وقد تغير لونها، وطلب من كامل ان يدير محركها . . تهلل وجه كامل، فقد تحرك محرك السيارة، أخرج من

جيبه عشرة جنيهات اعطاها للرجل . . ثم ودّعاه وركبا السيارة وانطلقا لمواصلة الرحلة . .

قال مازن . . لولا هذا (الراجل الطيب) لمكثنا حتى الصباح بجوار السيارة ، فرد عليه كامل . . يجب ان نتعلم ميكانيكا السيارات حتى لا نتعرض لمواقف مماثلة . . خصوصا اذا سافرت ذات مرة ومعك زوجتك واولادك . .

استمرا في السير لمسافة كبيرة بتأن ملحوظ ، لمح زايد كافتيريا بجوار الطريق فطلب من صديقه الوقوف بجوارها لتناول كوب من الشاي ، ودخول الحمام . . مكثا في الكافتيريا وقت قليل . . نظر زايد الى ساعته التي اقتربت من الواحدة ظهرا . . قال لصديقه : هيا فالوقت تأخر ، وامامنا مشوار طويل . . حاولا تشغيل السيارة لكن دون جدوى فقد باءت المحاولات بالفشل . . فتح كامل غطاء السيارة الامامي وانهمك في مراقبة اسلاك السيارة ، وتلفت زايد يمينا ويسارا وكأنه يطلب النجدة أو المساعدة ، شاهدهما رجل كان يجلس خارج الكافتيريا ، نهض من توه وتوجه ناحية السيارة ، أخبراه بالحكاية ، وضع الرجل يده داخل المحرك ، وعبث لوقت طويل بين اجزائها ، ثم طلب من كامل ان يجرب تشغيلها ، تهلل وجه زايد بالفرح حينما رأى السيارة وقد عادت لها الحياة من جديد ، أخرج من جيبه عشرة جنيهات واعطاها للرجل ، لكن الرجل اعترض على المبلغ وطلب خمس عشرة جنيها ، ناوله زايد الخمسة جنيهات الباقية . . شكراه وودعاه . . وانطلقا لمواصلة الرحلة .

قال زايد وعيناه ترقبان أشجار المانجو المزروعة على جانبي الطريق. .لولا ذاك (الراجل الطيب) لتأخرنا كثيرا، قال كامل وعلامات القلق باديه على وجهه: الحمد لله اننا قطعنا اكثر بكثير من نصف المسافة، ولم يبق الا القليل. . وما أتم كامل كلماته حتى سمع صوت غريب يخرج من المحرك، ويزداد تلقائيا، مبشرا بحدوث عطل كبير، اما سرعتها فتراجعت وكأنها تأبى الذهاب للقاهرة، وتيقن ساعتها ان محاولات (الرجال الطيبون) السابقة لن تجدي نفعا وان السيارة بحاجة الى اصلاح جذري. . وكان اقترب ساعتها من منطقة (الهايكستب) على مدخل القاهرة، فجعل يجول بناظره مع صديقه بحثا عن ورشة لاصلاح السيارات. .

صاح زايد. . ها هي. . مكتوب عليها ورشة (المعلم حنفي) انحدر كامل بالسيارة جهة اليمين وتوقف امام الورشة مباشرة. . نزل الصديقان من السيارة. . وقص كامل على (المعلم حنفي) ما حدث للسيارة اثناء الطريق. . فتح (المعلم حنفي) غطاء السيارة، وراح يحملق في الاسلاك ويدور حول المقدمة مرة من اليمين ومرة من اليسار، ثم نادى على احد الصبية، وطلب منه احضار بعض المفكات لاخراج قطعة معينة لتغييرها. . أرسل القطعة القديمة معه لشراء قطعة مثلها ولكن جديدة، عاد الصبي بعد حوالي ساعة ومعه القطعة الجديدة. . وبدأ المعلم يضعها في مكانها، ثم طلب من كامل ان يدير محركها. . فدارت السيارة وطلب المعلم حنفي سبعون جنيها ثمن القطعة، وايجار يده. .

ركب الصديقان السيارة بعدما شكرا (الراجل الطيب) على صنيعه، وقد بدى عليهما الارهاق والتعب. .

نظر زايد في ساعته، . . صرخ في وجه صديقه كامل، انها السابعة مساء. . لقد تأخرت كثيرا ولم يعد وقت لدي لمقابلة اولاد عمي حسن وحسين. وعليّ أن أعود للعريش فورا، أرجو ان توصلني الى موقف السيارات في المرج الجديد.

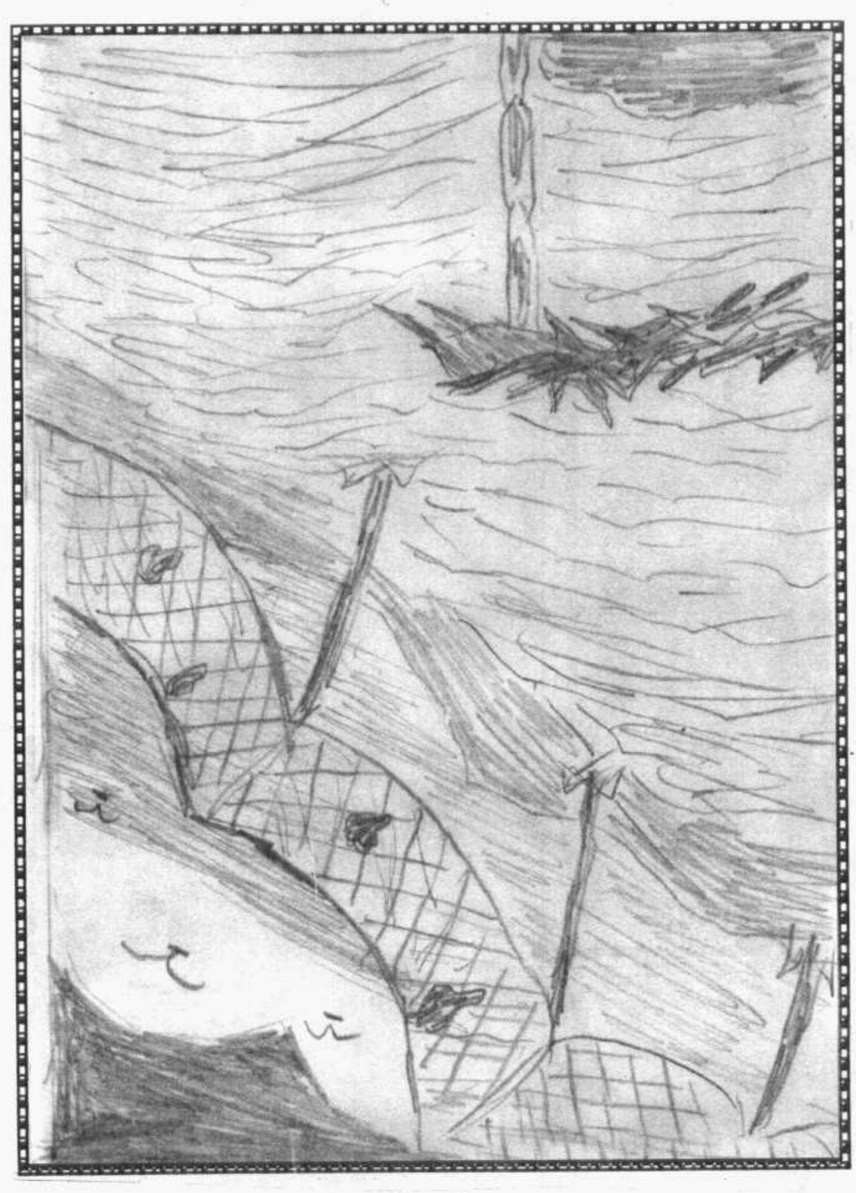
توجه كامل الى الموقف وهناك ودع صاحبه وانطلق كل في طريقه، كامل واصل مسيره نحو مصر الجديدة حيث زوجته واولاده بانتظاره، أما زايد فاستقل تاكسي اجرة عائدا الى العريش. .

طلب زايد من سائق التاكسي الوقوف بجوار منزله، وقد جاوزت الساعة الواحدة صباحا، ادار مفتاح البيت وصعد الى الدور الثاني، وجد زوجته امام جهاز التلفزيون. . سألها عن الاولاد، اخبرته انهم نائمون. . نظر الى المنضدة الموضوعة امام زوجته فوجد الطبق وبه بقايا من لب الامس. . إبتسم واخرج من حقيبته الصغيرة نصف كيلو اللب العائد من القاهرة. . جلس بجوار زوجته، وتناوب الاثنان على طبق اللب الموضوع امامهما على المنضدة الصغيرة، حيث اختلطت اصوات قرقعات التسالي مع أصوات فيلم عربي آخر. . . ممل.

* * *



موسم السمان



عشق الأشتر ركوب الدراجات منذ الصغر. . فكان يبالغ كثيراً في الاهتمام بدراجته القديمة الى حد ما. . فهي في عينه أكثر من غزال. . وكان يحرص على أن يجعل منها دائما طرازا فريدا، فكان يلف مواسيرها بشرائط ملونة من البلاستيك اللاصق، فتكون صفراء. . ما عدا المقود الذي يحب له اللون الاحمر. . وبعد ايام قليلة تجدها خضراء. . أو زرقاء. . وهكذا، واحيانا ينتزع تلك الشرائط ويقوم بطلائها باللون الذي يعنّ له. . فهي دراجته وسيارته وطائرته وصديقته التي ترافقه في معظم رحلاته داخل البلدة وخارجها. . حتى انه ليحدثها في أحيان كثيرة، ويضرب يده على مقودها أمام اصدقائه قائلا لها. . والله انت أصيلة. .

إعتاد ان يقلد أبطال العالم في سباق الدراجات، فكان يثني ظهره انثناءة خفيفة اثناء القيادة، ويهبط بعنقه قليلا بين اكتافه، ثم يخفض رأسه الى اسفل، ويكتفي بتحريك عينيه تارة الى الطريق، وتارة أسفل الدراجة وهي تسير بسرعة هائلة. . حتى يخيل لمن يراه انه لا ينظر أمامه مطلقا، وكثيرا ما حاول الاسراع لسباق السيارات التي تنطلق معه في نفس الاتجاه. .

كان الأشتر يختلف تماما عن كنيته. . فهو أسمر اللون، طويل ونحيف. . له شعر اسود كثيف تشوبه لمعة قوية يرتد الى الوراء، وعينان جاحظتان، يحملها وجه مستطيل لا يخلو من الوسامة. . وهو طالب مجتهد في القسم العلمي بالثاني الثانوي، ويحرص دائما على الحفاظ على ترتيبه المتقدم بين زملاءه في الصف. . ويهوى الرياضيات.

في أواخر أيام شهر اغسطس من كل عام، حيث «موسم السمان» تقسم أسرته ـ شأنهم شأن عائلات كثيرة تمتلك اراضي في انحاء متفرقة من شواطىء سيناء ـ ومنهم عائلة الأشقر ـ الى فريقين . .

فريق مكون من والده واخته الكبيرة يقيمون في بيتهم في العريش، والفريق الثاني مكون من الأشقر واختاه الصغيرتان واخاه الكبير وأمهم . . وهذا الفريق يرحل مع بداية الموسم، الذي يمتد لقرابة شهر ونصف الشهر الى البردويل، التي تبعد عن العريش حوالي سبعة كيلومترات، وترقد بكبرياء عند ساحل البحر . . وهي تختلف عن بحيرة البردويل . . حيث يقيمون العروش، وهي بيوت من سعف النخيل على مسافة غير قليلة من ساحل البحر . . وينقلون كل ما يحتاجونه من لوازم الحياة لقضاء تلك الفترة الممتعة من السنة . .

يعمد الاهالي الى وضع الشباك، كل حسب مساحته . . شرقي لعروش التي صنعوها بأيديهم .

كانت عائلة الأشقر تمتلك مساحة عشرون شبكة، طول الواحدة عشرون مترا، وارتفاعها متران ونصف، حيث تثبت كل شبكة من أحد طرفيها بعامود من الخشب من كل جهة، وتزرع الاعمدة على طول المسافة باتجاه مواز للبحر، بحيث اذا انتهت مساحة احدهم، بدأت مساحة الجار الاخر . . وهكذا، حتى اذا نظرت الى الشباك الممتدة افقيا في طابور يصل طوله الى عدة كيلومترات . . حسبت ان الناس سجنوا البحر بالشباك لمنع امواجه من التقدم ناحية البر، أو أنهم بصدد اقامة كورنيش رقيق يبدأ من تلك الشباك البيضاء، ويمتد حتى

الشاطىء.. أو انهم استجابوا لرغبات تلك الشباك المكومة والمخزونة منذ سنة مضت، لنلك أسرها، وترتيب اللقاء السنوي بينها وبين الهواء الاتي من البحر لمداعبتها طوال الوقت..

استيقظ الأشقر واخوته وأمه، في أحد الايام من شيخوخة سبتمبر، قرب صلاة الفجر ـ كالعادة ـ عدا أخته الصغيرة، وانتشروا مع انتشار الظلام كالجنود النظاميون، كل يعرف مهمته.. ليبدأوا عملهم اليومي.. إتجهوا صوب أول شبكة في اقصى اليسار، لينزلوا طرفها السفلي.. بحيث تظل معلقة من أعلى، ويلامس طرفها السفلي وجه الارض كأنها تتبّلها.. وهكذا فعلوا مع باقي الشباك، دون ان تسمع لهم صوت.. فقط اصوات وقع الخطوات، وانشطار الامواج على الشاطىء، والموسيقى المختلفة المنبعثة من مناقير طيور الشرقرق والصرد والنسيّ وطيور اخرى مغردة هنا وهناك.. ثم تحول الصمت الى همسات وهمهمات مسموعة، إقتصرت على توحيد الله وذكره بين فترة واخرى.. فالوقت مبكر.. والظلام يمسك بزمام الامور، والبرد ينذر بالرحيل تدريجيا..

وفجأة قطع الاخ الاكبر للأشقر جو الصمت، بعد الانتهاء من تنزيل الشباك بصوت منخفض..

ـ يالله ياجماعه كل واحد يأخذ مكانه.. توكلنا على الله..

إتجه كل منهم صوب المكان الذي اعتاد الجلوس فيه خلف «خيال» وهمي مصنوع من جريد النخل، على بعد خطوات متابل الشباك.. وقد ترك ظهره للبيت والبحر والخيال.. وتوزعوا على

مسافات متساوية، تغطي المساحة الاجمالية للشباك، بانتظار قدوم السمان الخارج من البحر ليصطدم بتلك الشباك.. ويقع في المصيدة..

يخرج السمان من البحر بعد رحلة شاقة تحمله من كهوف صخرية تقبع على مسافات بعيدة من اقصى البحر، اثناء رحلة الهجرة الموسمية لهذا الطائر الجميل ذو الطعم الرائع.. وما ان يصل الى الشاطىء للبحث عن مكان يرتاح فيه.. حتى يقع أسيرا في تلك الشباك التي لا يستطيع رؤيتها بسبب التعب والارهاق نتيجة الرحلة الطويلة..

وما هي الا لحظات حتى انضمت الاخت الصغرى للفريق، وراحت تجلس بجوار أمها.. وتأهب الجميع للعمل الذي يعتمد بالدرجة الاولى والاخيرة على ما يبعثه الله من خير.. فكنت ترى في كل لحظة أحدهم يجري مهرولا ليخلص سمانة أو اكثر من الشبكة، ثم يعود ليضعها داخل القفص الصغير الموجود بجواره في هدوء وصمت..

قبل طلوع الشمس بوقت قليل شعر الأشقر بنعاس سيطر عليه.. فالجو بارد، والسكون يخيم على المكان.. وراح يغط في نوم عميق.. وفجأة سمع صراخ امه من الموقع القريب منه..

أشقر.. الحق الشبكة امامك مليانه سمان..

انتبه للصوت، واندفع مذعورا صوب الشبكة.. شعر بانزلاق البالطو الذي كان يحتمي به من البرد ويضعه على كتفيه.. فتركه وواصل جريه لتخليص السمان.. طار النعاس من جفونه، ثم عاد وفي يده مجموعة من طير السمان، ذو الريش الناعم والرأس الصغيرة الذي

تدفئه احيانا بين جناحيها.

أدخل الأشقر السمان في القفص الصغير، عدا واحدة.. تركها بين يديه فترة الزمن، وراح يمسح على جسمها الناعم تارة، ويضعها بجوار وجنته كأنه يقبلها ليشعر ببعض الدفء تارة اخرى، ويضم اصابعه على رجليها ويجعلها ترقد على اصابعه المضمومة كأنه يعلمها الصيد على طريقة الصقور تارة ثالثة.. ثم أطلق العنان لخياله ونفسه يمنيها بوجبة سمان مشوي.. وقد ابتلع ريقه اكثر من مرة..

وكما اشتهر اهل العريش بالتفنن في طرق طهي الاسماك بأنواعها، فقد ابدعوا في طرق عدة لطهي السمان.. فتجدهم يطبخونه بطريقة القدرة.. شوية فريك، مع بصل وملح، ويضعوا السمان معهم داخل قدر من الفخار، بعد اضافة أنواع التوابل، ثم يضعونه على نار الحطب بعد أن يحكموا اغلاقه مدة ساعتين، أو طريقة الشوي.. حيث يلفون كل سمانه في ورقة مبلولة بالماء، ثم يقذفونها في النار، لتخرج بعد مدة بسيطة مشوية ولها طعم لذيذ.. اما المقلوبة بالسمان فهي من الأكلات الرائعة التي لا يعرفها غير أهل العريش.

لاحت للأشقر وجوه زملائه في المدرسة.. فراح يفكر في مدرسته، والعام الدراسي الجديد الذي بدأ منذ أيام قليلة، شعر بنشوة عارمة.. فها هو بعد قليل يحمل السمان ويذهب ليبيعه في العريش، ثم يذهب الى مدرسته، ويلتقي مدرس الرياضيات الذي يحبه كثيرا، ومن حسن الطالع ان جدول الحصص، يحمل له حصتان رياضيات، وحمد الله انه حل الواجب امس، وراجع دروسه جيدا..

وما ان دخلت الساعة حيز السابعة صباحا، حتى انتفض واقفا، واستدار برأسه يمينا وشمالا وشرقا وغربا، وكأنه اصبح مركزا للكرة الارضية. . ثم نظر الى القنص الصغير بجواره. . وفرح كثيرا على هذا الصيد الوفير.

صنع من كفيه الصغيرتين بوقا، وراح ينادي على امه واخوته. .

اجتمع فريق السمان. . كل يحمل قنصه الصغير، وجلسوا يفرجون عن الطيور الجميلة المتزاحمة في اقفاصهم من الحبس المؤقت، وينقلوها الى الحبس الجماعي الدائم في القنص الكبير المربوط بعناية خلف دراجة الأشقر، استعدادا لنقلها الى السجن المركزي في العريش حيث يتم بيعه في السوق الكبير هناك. .

تناول لقيمات صغيرة. . فالوقت غير مناسب لشوي السمان. . تفقد اطارات دراجته ومسح اسلاكها من الداخل، ونفض التراب عن مقعدها. . وقبل ان يبدأ رحلته، لمح أخته الصغيرة تركض نحوه. . همست في اذنه. .

ـ عايزة عسلية وشوكولاته. .

وفي هذه الاثناء تجمع بقية الفريق حوله لابلاغه ببعض الطلبات. .

الاخ الاكبر. . عاوز علبتين سجاير.

الاخت الاخرى. . عاوزه شويه ملبس. .

أمه. . عاوزه شوية طحين أسمر، وفلفل اخضر وباميه بلدية،

وباذنجان ومياه للشرب . . ثم أوصته بالسلام على والده واخته في العريش . . وصافحوه مودعين . . ثم انتشروا من جديد في اماكنهم، فأمامهم وقت آخر للصيد قد يمتد حتى التاسعة والنصف صباحا . .

أما الأشقر فقد انفرد بدراجته، حبيبته . . امتطاها يسابق الريح، والفرحة تسيطر على بدنه، وسار على الطريق الترابي الموازي للشباك . . وما هي إلا لحظات حتى اتجه صوب الطريق الاسفلتي في طريقه للبلد . .

ها هو يشعر بقدوم سيارة خلفه على الطريق السريع، أخذ أقصى اليمين، لكنه زاد من سرعته، علّه يسابق السيارة ولو بضع امتار . . وما أن اصبحت السيارة بمحاذاته تماماً، وكانت سيارة جيب اسرائيلية . . حتى لمح أحد الجنود الاسرائيليين يقف في باحة العربة المكشوفة . . ويقذف شيئا ما كان يحمله بيده تجاه الأشقر مباشرة لتصيبه في جنبه الايسر . . فيما تعالت صيحات الجنود وقهقهاتهم لاصابة الهدف، ولمنظر الصبي الذي فقد زمام القيادة، وانحدرت دراجته بسرعتها على الطريق الرملية لتسقط ويسقط الأشقر من فوقها بين اشجار النخيل . . ووقع على الارض.

أغمض عينيه لا اراديا، وكاد يغمى عليه لهول الضربة، ولاعتقاده أن الجندي رماه بقنبلة او زجاجة عصير، لكنه ما أن فتح عيناه حتى لمح حبة طماطم ملقاة الى جواره، نظر الى قميصه فوجد آثار اللون الاحمر باقية فيه . . أيقن ان الطماطم كانت سلاح هؤلاء الاوغاد، ولم تكن ثمة قنبلة او زجاجة عصير . . ذهب الخوف عنه تدريجيا، وقد

تناثرت حمولة الدراجة حوله في كل اتجاه، بينما ظل السمان حبيس النفص، وشاهدا على غدر الاعداء!

نهض الأشتر.. وقد هدأ روعه قليلا يلملم أشياءه، ويتفقد دراجته ويمسحها، وينفض عنها التراب، ويلعن جنود الاحتلال الذين دنسوا ارض بلاده ووطنه.

واصل سيره، وقلبه ممتلء بالغيظ من هؤلاء الجنود، الذين لا يتورعون عن أذية صبي مثله.. وأخذ يعد كلاماً كثيراً لاخبار والده، عما فعله به الاوباش، وما يكنه قلبه من كره للاسرائيليين. معتقدا أن أباه سيكسر رأسهم وسيقتلهم جميعا..

وما ان اقترب من العريش، معلنا نهاية رحلته الشاقة، حتى رأى جموع الناس منتشرة هنا وهناك.. وهم يحملون وجوه مقطبة مشدوهة على غير العادة.

اعتقد في باديء الامر ان السوق خالي من السمان، وان كل الناس في انتظار الدراجات أو السيارات التي تحمله، وان أسعاره لابد وان ارتفعت اضعاف اضعاف أسعاره في الايام العادية.

اقترب من أحدهم.. سأله ما الأمر؟.. علم أن سكان المدينة استيقظوا في هذا اليوم - شأنهم شأن كل مدن العالم - على خبر رحيل الزعيم جمال عبدالناصر.. لم يكن يعلم بذلك هو واخوته في البردويل، فالجميع انشغل بالصيد من الصباح، ولم يستمع أحد الى مذياع.. رأى المدينة وكأنه يراها للمرة الاولى وقد لفتها سحابة قاتمة من الفزع والجزع، انعكست حزنا في عيون البشر المندهشة.. فالفاجعة كبيرة

إذن . . فقد أحس الناس جميعهم فجأة بالهوان واليتم . . دون مدن واقاليم الجمهورية . . لم يصدق الناس رحيل قائدهم . . إنهم يرزحون تحت نير الاحتلال على مضض . . ويعدون اللحظات والثواني لكي يخلصهم زعيمهم من هذا الكابوس الثقيل . . أمعقول ان يرحل ويتركهم عرضة للذل والهوان . .

تجمع أهالي البلدة أمام «ميدان المالح» لترتيب جنازة رمزية لزعيمهم الغائب مرتين . . مرة بسبب الاحتلال . . ومرة بسبب الموت . .

ألقى الأشتر دراجته بما تحمله، في مكان ما بالقرب من الميدان، واندس بين الصفوف لا يدري ماذا يصنع . . تذكر مدرس التربية الاسلامية بالمدرسة وهو يحدثه عن يوم القيامة وأهواله، وازدحام البشر . . لكنه ولاول مرة في حياته يرى هذا الازدحام، وتلك الحشود . . التي ربما هي نفسها ما حدثه عنها مدرس التربية الاسلامية . . عاد بذاكرته الى دقائق مضت . . ادرك ان حالة الفرحة الهستيرية التي اصابت جنود الاحتلال الذين قذفوه بحبة الطماطم منذ قليل، كانت دليلا على نشوتهم وشماتتهم لفقدان الزعيم . .

اختلطت المشاعر في جسده النحيف . . فهو لا يدري ماذا يصنع . . فكان تارة يبكي بدموع طفل فقد ابويه، وتارة يهتف مع الناس بحياة الزعيم . . شعر كباقي الناس ان المصيبة كبيرة . وقع بصره على والده الذي جاوز الستين عاما . . وقد أتى ليشارك اهل بلده في مصابهم الجلل . . تجاهله . . وكأنه لا يعرفه . . ونسي أن يخبره

بتمته مع الجنود منذ قليل. . شعر ان مصيبة الامة أعظم بكثير مما حدث له. . فان كان الجنود أوجعوه بضربتهم، فان الموت أوجع الامة بأسرها آلاف المرات بفقدان زعيمهم وبطلهم. .

وحّدت الفجيعة قلوب الناس، وأضحوا كقلب رجل واحد. . ومشوا صامتين ونار العزلة عن الوطن الام تلهب قلوبهم ومشاعرهم. . وفراق زعيمهم يزيد من اشتعال هذه النيران. . . جابوا البلدة في مظاهرة ضخمة. . حملوا خلالها نعشا رمزيا للزعيم. . وصورا له. . وملأت اعلام مصر كل ركن من اركان البلدة. . وظل الناس هائمون على وجوههم الى قرابة المغرب. . ثم انسل كل واحد منهم عائدا الى بيته، وكأنه ترك روحه في ميدان المالح. . والحزن يملأ قلبه، والأسى يسيطر على كيانه، أما الأشقر فقد عثر على دراجته بعد وقت طويل، ثم ركبها وعاد الى البيت ليجد اخته في انتظاره. . ووالده يؤدي صلاة العشاء. .

كان الجوع الشديد يعتصر معدته الصغيرة. . فهو لم يذق الا لقيمات الافطار القليلة. . طلب من اخته ان تعد لهم طعام العشاء ريثما يأخذ دشا علّه يزيل عنه الارهاق. . أما الاحزان فهيهات ان يغسلها حتى ماء البحر. .

وقف للحظات في فناء البيت يفكر في احداث اليوم، ويرمق السهان المسجون في التفص على دراجته المركونة بجوار الحائط في البيت الكبير المكون من أربع غرف في صف واحد، تقابلهم صالة كبيرة على امتداد الغرف، وفي الناحية المقابلة يقبع الحمام والمطبخ والى جوارهم

فـرن مبني من الطين. . لاحت أمام عينيه صورة لامه واخـواتـه وهن يتناوبن على طهي العجين لخبز الارغفة البلـدي الكبيرة. . حيث كـان مع اخوته يتحلقون حول النرن للنوز «بالحنّونة». . وهي فطيرة صغيرة من العجين تُكسر على سطحها بيضـة او بيضتين ثم تلقى في الفـرن. . وما هي الا لحظات حتى يتسابق الاخوة للحصول عليهـا مطهيـة. . او على اجزاء منها وهم يركضون ويتضاحكون في «قاع الدار». . او فنـاء المنزل الذي كان كبيرا جدا لدرجة انه يتسـع لاكثـر من خمس عـربـات نقل كبيرة. . بالاضافة الى حظيرة لتربية الدجاج والبـط والغنم بجـوار الباب الكبير المصنوع من الواح الزنك. .

تزامن انتهاء الأشقر من حمامه، مع اتمام والـده للصـلاة، وجلس الجميع لتناول العشاء. . في صمت حـزين، دون ان يتفـوه احـد منهم بكلمة. . الى ان انتهوا من العشاء، وقـد حـان وقت النـوم. . فتسلـل الـوالـد لغـرفتـه. . واتجهت الاخت الكبرى للمطبـخ لتعـد لاخيهـا الشاي. . أمـا الأشقـر فقـد شعـر بحـماس كبير لاستـذكـار دروسـه، وخصوصا مادة التاريخ عسى ان يجـد بين سطـورهـا مـا يحكي لـه عن سيرة الـرئيس جمـال عبـدالنـاصر. . دلف الى غـرفتـه. . وجلس على المنضدة، ووضع كوب الشاي امامـه. . وراح يقلب كتـاب التـاريـخ، كأنما يبحث عن شيء بعينه. . واستغـرق في القـراءة وقتـا غير قليـل، حتى جاوز الوقت منتصف الليل، واذ به يسمع طرقا عنيفا على البـاب يخالطه اصوات جنود تتحدث العبرية. .

كان جنود الاحتلال في تلك الايام يمرون في الشـوارع ليـلا، ولا

يمنعهم خجل او مروءة في أي وقت من مداهمة أي منزل يلمحون انبعاث اضواء من شبابيك غرفه. . وكانوا يعمدون الى سلالم مصنوعة من الحبال يلقونها على السور الخارجي للبيت، ثم يهبطون بواسطتها داخل البيوت للتفتيش عن اسلحة او منشورات يكتبها الناس والطلبة الساهرون في بيوتهم لتوزيعها في اليوم التالي ضد الاحتلال. .

شعر الأشقر بخوف شديد. فأطفأ النور على الفور. . وفي لحظات قليلة القى بجسده الطويل النحيف على السرير، وراح يلملم البطانية من جميع الجوانب ليغطي سائر بدنه من رأسه الى قدميه. .

في تلك الاثناء إنصرف الجنود. . كأنهم رأوا مكانا اخرا أولى بالمداهمة. . نهض والده من نومه وراح يتفقد أرجاء البيت بثبات الرجل المؤمن الذي لا يخشى الا الله. . دخل غرفة الأشقر ليطمئن عليه. . وجلس لثوان يستريح على كرسي بجوار سريره، شعر براحة بالغة. وحمد الله ان ولده لم يسمع طرقات الجنود ولا أصواتهم. . وها هو نائم والحمد لله. . همس في جوفه ببعض كلمات الشكر لله والثناء عليه، ثم انصرف بهدوء وصمت شديدين ليواصل نومه. .

كان الأشقر يسمع تلك الخطوات والحركات. . التي تبعت طرق الباب وأصوات الجنود، ولم يخطر على باله للحظة انها خطوات وحركات والده. . فقد خُيِّل اليه أن أحد الجنود دخل غرفته، وانه جالس الان على الكرسي الملاصق لسريره يعمد الى اختباره ان كان نائما، أو انه يصطنع النوم!

تخيل والخوف يجثم على أنفاسه، أن الجندي الاسرائيلي الجالس

بجواره ينظر الى البطانية التي يختبىء تحتها. . يراقب كل حركاته، ثم ينظر تارة اخرى الى الاوراق المتناثرة على مكتبه، وقد يعتقد الجندي انها منشورات اعدت للتوزيع، وان الاقلام واوراق الكربون هي بعينها جسم الجريمة وهي. . كافية لادانته. .

أغلق عينيه بقوة. . في الوقت الذي زادت فيه يقظته، وفر منه النوم. . رغم التعب والارهاق الذين حلا به خلال النهار، ورغم حالة الحزن التي تجتاحه.

تذكر انه غاب عن المدرسة بسبب النـاجعـة التي ألمت بـالـوطن والامة، فقد كـان يتعين عليه أن يذهب الى المدرسة بعد أن يبيع السمان، ثم يعود الى البيت ليتناول طعام الغداء مع والده واخته. . وبعد العصر يعود الى البردويل، محملا بالاشياء التي طلبوها منه. . وخصوصا الطحين والحلويات وجالون المياه الحلوة للشرب. . كادت تصدر منه لفظة ضيق. . لولا انه ابتعلها، خشية ان يسمعها الجندي. . أتبعها بلفظة ألم شعر كأنها تخرج من اصابع قدميه. . فهو لا يدري كيف تصرفت امه واخوته وقد انقطع عنهم الامداد، واخبار البلد. .

تمنى لو نهض في الحال وسارع اليهم. . لكن وجود هـذا الجندي بجواره يمنعه حتى من الحركة. . يمنعه من التقلب على السرير ومن تغيير موضع يده التي شعر بتنمل فيها، ورأسه التي القت بكل وزنها على اذنه المحشورة بينها وبين الوسادة، لكنه لا يستطيع تحريكها. . تمنى لو مد يده لهرش قدمه اليسرى. . لكنه لا يجرؤ فالجندي له بالمرصاد. . فلو علم هذا الجندي بانه يصطنع النوم لحدثت مأساة

كبيرة.. تبدأ بدخوله السجن، وما يتبع ذلك من اتهامات بالتحريض على اعمال الشغب وتوزيع المنشورات ثم التعذيب بكل أصنافه..

حدث نفسه.. ربما رآه هذا الجندي اثناء مظاهرات الامس، أو التقط له صورة.. وها هو ينتظر استيقاظه حتى يطابق الصورة على الوجه..

امتدت حالة الموت التي اجتاحته قرابة الثلاث ساعات.. مرت كأنها ثلاثين عاما، بل هي لم تمر ابدا.. إحترق خلالها مرات ومرات ومات الف مرة.. ولم يجرؤ حتى على مناداة والده الذي يرقد في الغرفة المجاورة..

تذكر انه لم يخبر والده عن حادثة الطماطم لينتقم له من هؤلاء الجنود الحاقدون.. وتذكر «أمل» بنت جارهم في البردويل التي يحبها ببراءة الاطفال، وانه لا بد أن يخبيء لها بعض الحلوى والملبّس، ليقدمها لها خلسة دون ان يراه احد من أهله.. حدثته نفسه.. ماذا لو قام وضرب هذا الجندي على رأسه بالمكواة الموجودة اسفل السرير.. وفر هاربا الى البردويل، حتى يثبت لها انه بطل كما قرأ في قصص التاريخ.. لكن هذا الجندي الحقير، لابد وانه كبير الحجم كالجنود الذين رآهم في الصباح، وحتما معه سلاح. لا.. انه لا يستطيع ذلك!

وفجأة.. تناهى الى سمعه صوت خفيف لاقدام تتحرك على البلاط.. اعتقد ان الجندي يدور في اركان الغرفة يتفقد محتوياتها من جديد.. تسمّر في مكانه.. انتابه شعور بانه ميت.. وان سريره ما هو الا قبر، وان هذا الجندي أحد اثنين.. إما ناكر واما نكير.. وانهما

بصدد الترتيب لحسابه وتعذيبه ريثما يجتمع الاثنان. .

ثم سمع صوت أنامل تتحسس موضع كبس النور على الحائط لاشعاله. . لكنه لا يستطيع رؤية الضوء. . فالبطانية تحتويه من رأسه الى قدميه. . ووجهه باتجاه الحائط القريب منه، وظهره باتجاه باقي الغرفة، وصوب الجندي الذي يدور فيها. .

ازداد وقع الاقدام التي تشبه اصوات الرصاص. . ادرك ان الصوت منبعث من الصالة الخارجية، وانه يزداد شيئا فشيئا. . وانه مقبل عليه لا محالة. .

ـ أكيد هذا المحاسب الثاني. . ناكر أو نكير. . . قال في نفسه.

وفجأة سمعها باذنه. .

أشقر. . أشقر. .

زاد خوفه. . وجف الدم في عروقه. .

ـ انه يعرف اسمي!

اختلطت الاصوات في عقله. . ولم تعد لديه القدرة على تمييزها! بل لم تعد لديه القدرة على الرد أو الاجابة. . فقد جف حلقه ايضا، وشعر انه لا يقوى على الكلام. .

ـ إذا لم اكن ميتا فعلا. . فاني هالك لا محالة. . قال لنفسه!

تمنى لو ان البطانية لا تسمح بمرور الكلام خلالها. . لكنه عاد يسمع من جديد. . تمتمات. . تعالت شيئا فشيئا لتصل الى اذنه. . لا إله الا الله. . محمد رسول الله. .

ـ ياللا يا أشقر . . النهار طلع والشمس ملت الدنيا . .

لم يصدق نفسه . . انه صوت والده يتوضأ لصلاة الفجر . . انتفض واقفا والقى بالبطانية في اقصى مكان في الغرفة، وهرول الى والده مسرعا يحتضنه، وهو يبكي بحرقة وألم ولا يكاد يصدق انه على قيد الحياة . .

أدرك والده الحكاية . . واحتضن ولده من جديد، ومسح على رأسه وقاده الى الصالة . . وأخذ يهدأ من روعه . . واخبره انه هو الذي جلس بالامس عند رأسه للحظات، ثم قام وإنسل لاكمال نومه في الغرفة المجاورة . . بعد أن اطمأن لاستغراق الأشقر في النوم . .

طلب الوالد من ابنته ان تعد لهم ترويقة الصبح ريثما يصلي الفجر . .

جلس ثلاثتهم الى المائدة يتناولون طعام الافطار . . والأشقر متجهم، خائف، لا يكاد يصدق ما حدث . .

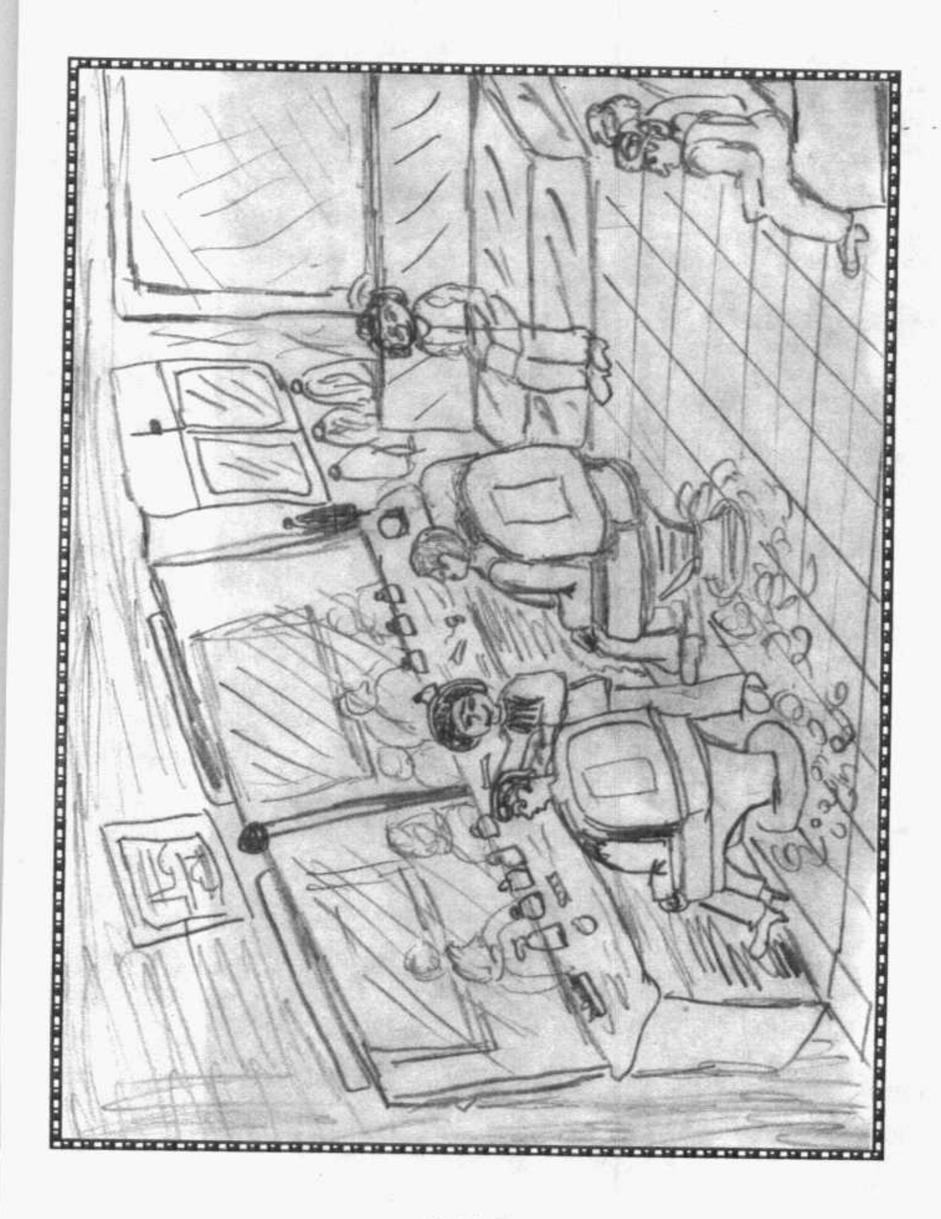
طلب الوالد من الأشقر ان يقصد السوق، ليبيع السمان المسجون منذ الامس في التنفص، ثم يذهب الى امه واخوته في البردويل بعد أن يشتري لهم جميع طلباتهم . .

لم يمنع الحزن العميق في عيون امه واخوته من احتضان الأشقر . .

اخرج الملبس والعسلية والشوكولاته لاختيه . . لكنهما رفضتا . .

قالتا في صوت واحد . . والدموع تملأ عيونهما البريئة . . لقد مات جمال عبدالناصر .

العودة



اوقفت سيارتي مقابل صالون فؤاد للحلاقة.. ترجلت منها قاصدا الصالون.. دلفت خطوتين داخله، والقيت التحية على الجميع، وتحية خاصة للجالسين على كرسي الحلاقة.. نعيما مقدما..

صالون فؤاد يتسع لحلاقة فردين في وقت واحد، مساحته كبيرة نوعا ما، ويغلب عليه وعلى محتوياته اللون الاخضر.. وكأنه مقام «النبي ياسر» وهو ضريح مقام على تلة عالية بالقرب من شاطىء البحر في العريش.. يتردد عليه الناس للتبارك به، والدعاء عنده.. ولا يعرف على وجه الدقة، تاريخ صاحب هذا الضريح ولم نسمع ونقرأ عن نبي اسمه ياسر..

في الصالون مجموعة من الكراسي الجلدية في صف واحد يجلس عليها الزبائن، خلف كرسي الحلاقة.. ومثبت في ركن علوي على أحد الحوائط جهاز تسجيل، يعلوه مباشرة جهاز تلفزيون ملون، وتتوسط الصالون مروحة كهربائية تحرك الهواء الساخن داخل المكان بسبب اغلاق الباب الالمنيوم الزجاجي خشية من هجوم الذباب اللعين في فصل الصيف.

سألت كمال الذي انهمك في قص شعر أحد الزبائن.. هل أستطيع ان أحجز دور لقص شعري؟ أشاح بيده اليسرى التي تحمل المشط الى أعلى، ونظر في ساعته، بعد ان رمق الزبائن الجالسين وقال بصوت جاف: بعد ساعة وربع..

يعمل كمال مدرس لغة عربية في احدى مدارس العريش الاعدادية.. وفي الفترة المسائية يعمل مع صديقه فؤاد في صالون

الحلاقة، لزيادة دخله . . تمهيدا لتأسيس عش الزوجية . .

كمال شاب طيب، دمث الاخلاق، من عائلة عريقة . . في اواخر العقد الثالث من عمره، وسيم متوسط الطول. وله لحية رقيقة مهذبة تلتقي عند طرفها السفلي مع شارب مرسوم بعناية فائقة اسفل أنفه الصغير، وعند طرفها العلوي مع سالفين قصيرين . . لتشكل جزيرة من الشعر البني اللون تحيط بالوجه، تتوسطها عيون طفل بريء، وأهم سماته انه يهوى الكلام . . ولا يستسلم بسهولة لأي تعليق، أو أي حديث، لكنه دائما يزيد او ينتقد بأدب جم . . يحب الكرة لدرجة الجنون ويشجع النادي الاهلي . . واذا دخل في مناقشة، فأما يختلف مع الاخرين . . أو يحاول اقناعهم بالقوة . .

مكثت لحظات افكر في كيفية قضاء الساعة وربع . . لكن ما لبثت ان اضطررت الذهاب الى ديوان العائلة للمشاركة في عزاء أحد الاقارب توفي أول امس.

وما أن فتحت باب السيارة وجلست على الكرسي . . حتى سمعت اسمي يردده أحد المارة . .

ـ يا حاج محمود . .

التفت . . واذ به أحد الاقارب وقد دنا مني، واصبح مقابل نافذة السيارة، أردت فتح الباب لمصافحته، لكنه ابى . . واقسم ان اظل داخل السيارة، واكتفى بمصافحتي من النافذة . . وأخذ يحادثني وهو واقف . .

ـ لا تنسى موعد الجماعة اليوم . .

ـ أي موعد . . وأي جماعة؟

ـ مشكلة الارض بين ورثة الحاج حمدان . .

ـ ومتى الموعد وأين؟

ـ سنحدد الموعد بعد صلاة العشاء في مسجد اولاد الحسين . .

ـ حسنا . . أي خدمة . .

ـ أين وجهتك؟

ـ الى الديوان للعزاء . .

ـ خذني معك . . فأنا لم اذهب الا مرة واحدة . .

دلفنا سويا الى الديوان الممتلىء بالرجال الجالسون على كراسي، انتشرت في صفوف منتظمة صنعت حزام كبير حول محيط الديوان . . مع وجود صفوف اخرى مستطيلة انتشرت داخل هذا الحزام . .

وقف أبناء الفقيد واخوانه . . لتقبل العزاء، وهم عادة ـ اقارب الفقيد ـ يجلسون على يمين الديوان لتقبل العزاء . . ثم عثرت على كرسي . . وما ان جلست عليه . . حتى اقترب مني غلامان . . احدهما يحمل «بكرج» القهوة في يده اليمنى . . ومجموعة فناجين متداخلة فوق بعضها في يده اليسرى . . افرغ بعض القهوة في الفنجان وقدمه لي . . أخذته واحتسيت ما به من كمية قليلة في رشفة واحدة . . فهي سوداء بدون سكر . . ثم ناولت الغلام الثاني الفنجان . .

تسارع كل قبيلة في العريش بعد دفن الميت الى فتح الديوان لمدة ثلاثة ايام. . على فترتين صباحية ومسائية، ويمكث اهل الميت لتقبل العزاء طوال الثلاثة ايام. . تتناوب القبيلة خلال الايام الثلاثة على تقديم طعام الغداء لاهل الميت من الذكور وللموجودين في الديوان، ويرسلون نصيب النساء من الاكل في بيت المتوفي. . حيث تجتمع النسوة لمدة ثلاثة ايام ايضا.

ضغط المقرىء على سماعة الميكروفون. . فتهيأ الجميع لذلك، واعتدلوا في جلساتهم، وامتنع بعضهم عن الكلام. . وألقى البعض الاخر سجائرهم وهي لم تنته بعد. . وبدأ المقرىء يتلو آيات القرآن الكريم. . والمعزون يدلفون جماعات جماعات، يصاحفون أهل الميت ثم يجلسون. .

وما ان تنتهي تلاوة القرآن، حتى يردد الكثير من الموجودين في جنبات متفرقة من المكان. . الله يفتح عليك يا عم الشيخ. . أو أحسنت يا عم الشيخ. . أو جزاك الله خيرا ياشيخ. . ثم يبدأ بعضهم في مصافحة أهل الميت مرة اخرى. . مودعين.

التقت عيني بعين أحد الاصدقاء جلس في ركن بعيد من الديوان، وكان يومىء لي باشارات لم افهمها. . وما أن نهضت لاصافح أهل الميت مودعا. . وخرجت الى الشارع، حتى سارع لايقافي قبل ركوب السيارة.

ـ خيرا. . اراك ترسل اشارات غير مفهومة!

ـ أردت اخبارك بموعد المباراة غدا بين فريقنا وفريق البحر.

ـ أين سنلعب هذه المرة. .

ـ في الملاعب المفتوحة بالقرب من الشاطىء في الرابعة عصرا. . ثم ودعني وانصرف. .

ركبت السيارة وقبل الانطلاق نظرت الى الساعة. . فهناك اكثر من نصف ساعة. . عزمت على الذهاب الى سوق المحاسنة للخضار . . وبينما كنت أسير بتأني صوب السوق. . اذ بي المح سمير يوقفني من خلال اشارة من يده. .

ـ خيرا يا سمير. .

خيرا ان شاء الله. . ارسلت لك بطاقة دعوة على البيت ادعوك والعائلة لحضور حفل زفاف اخي مساء الغد. . وانتهزت فرصة رؤيتي لك حتى ادعوك شخصيا وبنفسي. .

ـ وفي أي قاعة العرس ان شاء الله؟

ـ في بالم بلازا. . فالمكان جميل وواسع تتوسطه مياه جميلة مقابل الشاطىء. . وانت تعلم ان الحاج محمود صاحب المكان يساعد ابناء البلدة ويطلب ايجار رمزي للمكان لتشجيعهم على ارتياده. .

ـ هل مسموح باصطحاب الاطفال؟

ـ كتبنا على البطاقة (ممنوع اصطحاب الاطفال) لكن انت تعلم ان أهل العريش لا يأبهون بتلك العبارة، ولا يعترفون بها. . فاما أنهم يغضبون ولا يحضرون بالمرة، واما أنهم يأتون بأطفالهم جميعا واطفال جيرانهم ان امكن. . مما يسبب ارباكا للقائمين على العرس عوضا عن

الضوضاء والصراخ والبكاء الذي يصدر من اطفالهم، ويطغى على صوت الموسيقى. ويسلب المتعة من الصغار والكبار على حد سواء..

ـ سوف احضر مع زوجتي باذن الله..

ـ الى اللقاء..

ـ الى اللقاء..

ذهبت الى سوق الخضار.. صافحت أكثر من شخص.. هذا ابن خالتي يسألني عن أمي ودور الانفلونزا الذي تعرضت له.. وهذا صاحب محل خضار يلعب معي في نفس الفريق، ويؤكد لي على موعد الغد.. وهناك صديق يشير من بعيد ومعه زوجته ويهددني بابتسامة حب اذا لم ازوره في البيت..

وما أكملت شراء حاجياتي، ورحت أحمل أكياس النايلون الممتلئة بالخضروات، حتى لمحني قريب لي جالس امام محل السمك الخاص به، فارسل ولده الصغير ليساعدني في حمل تلك الاكياس، ويوصلني الى السيارة.. شكرته من بعيد بالمشاورة.. ثم انطلقت الى البيت لايصال الحاجات.. ثم عدت على عجل.. فقد أزف موعدي مع كمال في صالون الحلاقة..

جلست على الكرسي. وأسلمت رأسي لكمال.. وضع الفوطة حول رقبتي، وجعلها تنساب على باقي جسمي للحيلولة دون سقوط الشعر المقصوص على ملابسي..

تجاذبت اطراف الحديث مع زبون آخر يجلس على الكرسي

المجاور.. ريثما يتم كمال احضار أدواته.. وهذا الزبون جار لي في السكن.. كنت احدثه وانا انظر اليه، بينما كان يحدق في المرآة التي امامه بسبب انشغال فؤاد في قص شعره.. اتفقنا على رغبتنا في زراعة الشارع ببعض الاشجار التي تضفي عليه منظرا جميلا.. كما اتفقنا على تحذير ام ابراهيم التي تلقي القمامة امام منزلها كيفما اتفق.. مما يسيء الى المنظر العام..

وضع كمال جميع الادوات امامه.. وبدأ المقصان يعملان في وقت واحد.. مقص في يده انطلق يطيح بشعري.. ومقص بين فكيه انطلق كالصاروخ مستهلا الحديث بسؤال..

- هل شاهدت ماتش المنتخب المصري مع السعودية؟

وقبل ان اجيب.. راح يشتم في الحكم ابن كذا وكذا.. لقد ظلم منتخبنا بطرد ثلاثة لاعبين.. أكيد قابض من السعودية.. واكيد.. وقبل ان يكمل كلامه... دخل أحد اصدقاء ابني حاملا زجاجة عصير.. وضعها أمامي على الرف الزجاجي وقال.. هذه لك ياعم محمود.. شكرته وأنا لا اجرؤ على الحركة بسبب قيود الاسطى كمال من فوطة ودبابيس وخلافه..

واصل كمال حديثه وقد غيّر دفته.. تناول تلاميذ هذه الايام.. وشكى من جهلهم، وسلوكهم السيء، وجنوح بعضهم في تلك السن المبكرة لشرب السجائر والمخدرات.. وانه اختار مهنة الحلاقة بدلا من الدروس الخصوصية.. لانه يفيض في الشرح للتلاميذ ويراعي ضميره.. واتهم من يعطون الدروس الخصوصية بانهم غير امناء..

وان فلوسهم حرام في حرام . .

لمح الاستاذ صبري مدرس اللغة الانجليزي لابني أحمد . . سيارتي الواقفة أمام الصالون . . فعلم بوجودي . . دخل الى الصالون وحيى الجميع ، ثم اقترب مني . .

في تلك الاثناء . . كان التلفزيون يعرض لقطات لاهداف مباريات في الدوري المحلي ، فانتهز كمال وجود الاستاذ صبري معي . . وهرول مسرعا ليقف امام التلفزيون ، ممسكا بالمقص والمشط يتابع تلك الاهداف بشغف جنوني . .

قال الاستاذ صبري ان احمد مش نافع في مادة الانجليزي ، وانه بحاجة الى دروس خصوصية . .

ـ اوعى تفتكر اني بأقول الكلام ده علشان الفلوس . . لا . . لكن تهمني مصلحة أحمد ، الذي هو إبن صديقي العزيز . .

ـ ولماذا لا تقوم بافهامه اثناء الدرس مع باقي التلاميذ؟

ـ يا حاج محمود . . عدد التلاميذ كتير . . والوقت قليل . . وبعدين بصراحة احنا بنشرح على قد الملاليم التي بناخدها آخر الشهر . . ويادوب الحالة ماشية . . اما في الدرس الخصوصي ، فاني اركز كثيرا على التلميذ . . واجعله يهضم المنهج ويفهمه تماما ! !

ـ طيب يا استاذ صبري . . اشكرك وسوف ارد عليك ! !

تركني الاستاذ صبري وانصرف . . وبقيت انتظر الاسطى كمال . .

نظرت امامي الى الرف الزجاجي اسفل المرآة ، الممتلىء باصناف لا

حصر لها من الزجاجات الصفراء والحمراء والسوداء، وعلب الكريمات المختلفة.. ثم حدقت في وجهي بالمرآة.. ولا أدري كيف عادت ذاكرتي الى سنوات قليلة مضت، حيث كنت اقيم في مدينة الذهب.. دبي.. في الامارات العربية المتحدة.. تلك المدينة الرائعة التي ترقد عند اطراف البحر، ويخترقها الخور الجميل الذي يزيد من بهائها، ويجعلها حقا من أجمل مدن العالم، ففيها ترى القديم الاصيل من المباني والاسواق، والجديد الحديث من التصميمات ذات الطراز المعماري الرائع. فضلا عن اناسها الطيبون..

تذكرت الصالون المجاور لمنزلي.. كنت اقص شعري عنده.. وكنت العربي الوحيد الذي اجلس بين الزبائن ـ واغلبهم من الجنسية الاسيوية ـ باكستانيون وهنود.. لا أفهم اي كلمة أسمعها.. حتى التلفزيون القابع في ركن من اركان الصالون.. كان مثبتاً على قناة فضائية هندية.. تبث ليل نهار الافلام الهندية التي غالبا ما تبدأ بقصة حب بين شاب وفتاة.. تتخلها قبلات عنيفة.. وغناء ورقص للبطلة.. ثم معركة طاحنة بين البطل وناس اخرون. تنتهي بانتصار البطل في اغلب الاحيان!

وحينما يأتي دوري للحلاقة.. اجلس على المقعد، واطلب من الحلاق الهندي بلهجة تكاد تكون عربية تخالطها لهجات اخرى من بينها الانجليزية.. ثم اطلب منه ان يقص قليل من شعري.. حيث أضع يدي أعلى رأسي واقول له..

يا رفيق.. هذا شعر مال أنا.. بليس شويه كت..

كان يهز رأسه دليل على وصول الرسالة. . ثم يبدأ في قص شعري. . واظل قابعا طوال الوقت كالاطرش في الزفة. . اسمع ولا افهم ما يدور. . التلفزيون هندي والزبائن هنود والحلاقين هنود. والرائحة هندية واللغة هندية. . كل ما أعرفه عنها انها ممتلئة بحروف العلة. . لدرجة انك يمكن ان تراقب أحد الهنود وهو يتحدث فترة طويلة من الزمن، دون ان ترى أي تلامس لشفتيه او انطباقهما على بعض. . بسبب كثرة حروف العلة. .

ولا اعرف ان الحلاق الهندي انتهى من الحلاقة، الا حينما اسمعه يقول لي. . اوكيه رفيق!!

انظر الى المرآة. . فاكتشف ان الرسالة لم تكن وصلته. . وانه قد جرد رأسي تماما من الشعر. . فاعجز عن افهامه. . وادفع الفلوس في غيظ وامضي لحال سبيلي. .

عاد كمال بعد انتهاء لقطات الاهداف التلفزيونية، يسب ويلعن الحظ الذي جعل احد الفريقين يفوز. . والحكم المرتشي الذي كان محايدا لاحدهم. . وحتى المعلق لم يسلم من لسانه. . فهو منحاز للفريق الفائز ـ كما قال كمال. . قاطعه فؤاد الحلاق الاخر

ـ . . انت مالك ومال المعلق والحكم. .

ـ أصل انت ما بتفهمش في الكورة. .

ترك فؤاد الزبون المستسلم امامه واتجه نحوي، واقترب من اذني وكأنه يسرّ الي. . الجمعة الماضية لعبنا انا وكمال في فريق واحد. . والله

اعطيت له كم كورة جاهزين.. لكنه اضاعهم بغباء.. وجاي يتكلم عن الكورة.

التقطت كمال طرف الحديث الذي تناهى اليه وقال: طب انا جبت جونين.. قولي انت ايش جبت..

عقّب احد الزبائن المنتظرين لدورهم.. ان كمال لا يجب ان يلعب في الهجوم.. لانه لا يجيد استعمال كلتا قدميه.. ولذلك فانسب مكان له في الدفاع!

جن جنون كمال.. وتركني واتجه صوب الزبون وقال له.. انت آخر واحد تتكلم عن الكورة.. انت مش عارف الفرق بين كرة القدم والتنس..

يشبّه اصدقائهما.. كمال وفؤاد.. بتوم وجيري بطلا الرسوم المتحركة.. فهما يلعبان في فريق محلي واحد، ويشجعان الاهلي، ويعملان في نفس المكان.. الا ان الوقت بينهما لا يتسع للهدنة والمجاملة.. فخلافهما في الرأي لا حدود له.. وانتقادهما لبعضهما في كل شيء أمام الزبائن لا يتوقف.. الا انه حينما ينتهي وقت العمل ويغلقا الصالون.. يتصافحان بود ومحبة على أمل اللقاء في اليوم التالي!

عاد فؤاد الى زبونه يقص شعره.. وعاد كمال الى رأسي.. التي صارت مثل الكورة بين يديه.. واصبحت اكثر خوفا نتيجة الحالة العصبية التي اعترته.. خصوصا وانه يحمل المقص بين يديه.. فخشيت على رأسي منه.. وبدأت اراقب حركاته بحذر شديد..

لاحت لي في المرآة صورة لرجل يدخل الصالون وكأني اعرفه. . وما ان التى التحية بصوته النحاسي. . حتى عرفته تماما. . انه ابن عمي العائد من الاردن للتو. . نهضت من الكرسي لاحتضنه واصافحه. . تركنا كمال وذهب الى الزبون السابق ليلقنه درسا في الكورة. . تحدثت مع ابن عمي كثيرا، وحمدت الله على سلامته. . وحدثني عن اشتياقه لاولادي وهو ينتظر رؤيتهم لانه يحمل لهم هدايا جميلة. . صافحته وانصرف. . وعدت الى الكرسي. . وما زال كمال يحاضر للزبون المسكين عن فن الكورة. .

طلبت من كمال ان يأتي لاكمال الحلاقة. . تمتم ببعض الكلمات. . فهمت منها. . عالم ما بتفهمش كورة. . وقبل ان يعود صوت المتص لمداعبة اذني من جديد. . لمحت في المرآة صورة وائل. . صديق ابني يتهامس سرا مع كمال. .

عادت ذاكرتي مرة اخرى الى صالون الحلاقة في دبي. . وكان اسمه «صالون الازهار». . فكثيرا ما حملت اسماء المحلات والصالونات والاماكن، التابا تخالف نوع النشاط الذي تمارسه. . فكنت تجد سوبر ماركت «اولاد رجب». . مع ان رجب هذا رجل يمني لم يرزق باطفال بتاتا. . او محل الزهور لبيع الدجاج في منطقة السطوة. . . او محل طازج للدراجات. .

تذكرت كيف كنت امضي الوقت الطويل بانتظار دوري في صالون الازهار. . دون أن افتح فمي بكلمة واحدة. . ودون أن أرى أحد الاقارب او الاصدقاء. . حيث كنت أشعر بغربة كبيرة داخل

الغربة!

مر شريط عابر امام ناظري تسلل من خلف المرآة التي ابحلق بها لمجسل احداث ذلك اليوم.. وازدحامه بالمواعيد والمجاملات واللقاءات المتناثرة هنا وهناك.. مع الاقارب والاصدقاء والجيران والاهل والاحبة..

أدركت الفرق بين الحياة في الوطن.. والحياة في أي مكان آخر.. وحمدت الله على عودتي واستقراري في وطني الغالي.. وبلدي العريش الحبيبة..

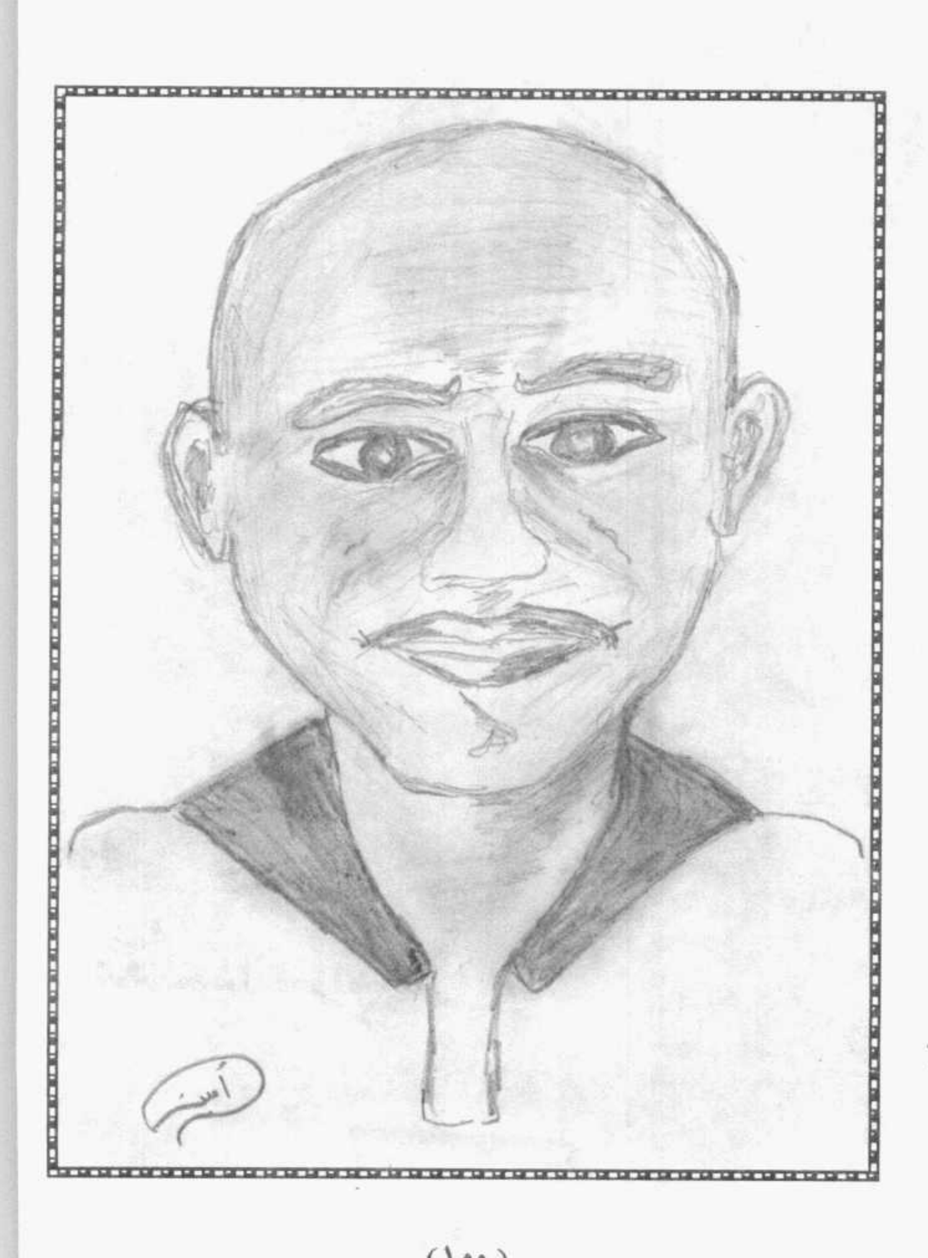
انتبهت فجأة من شرودي على صوت كمال ينزع الفوطة ويقول: نعيما يا عم محمود..

ـ الله ينعم عليك.

مددت يدي الى جيبي لاخراج النقود.. وضع كمال يده فوق يدي الراقدة في جيبي وقال.. خلاص.. وائل صديق ابنك دفع الحساب!!

* * *

محمـود الغـريب



تحلقت افراد الاسرة حول الطبلية لتناول طعام الافطار. . التقط محمود الغريب، رب الاسرة رغيف من امام زوجته، ومزقه الى نصفين وهو يرمق ابنته الكبرى فاطمة موجها كلامه الى زوجته. . . جارنا لطفي اخبرني مساء امس ان عريسا من عائلة محترمة سيأتي بعد اسبوعين لكي يرى فاطمة ثم يتقدم لخطبتها. . وما أن اكمل كلماته حتى وضعت بنته الصغرى التي لم يتجاوز عمرها سبع سنوات يدها فوق فمها وراحت تطلق زغرودة بريئة، خرج على اثرها الاكل من فمها. . فضحك الجميع على تصرفها. . عدا فاطمة التي احجمت عن الاكل، وحبست فرحتها داخلها، ونهضت من فورها. . دخلت غرفتها والسعادة تملأ وجدانها وكيانها. .

لقد اوشك صبري ينفذ ـ حدثت نفسها ـ فهاأنذا بلغت الثامنة والعشرين، والوقت يمر والايام تتوالى. . كنت ابحث منذ وقت طويل بين ابطال الافلام والمسلسلات التلفزيونية عن شكل العريس الذي اتمناه واوصافه، وكنت افاصل بينهم في أحيان كثيرة. . اما الان فسأقبل بأي رجل اكمل معه بقية حياتي وانجب الاولاد والبنات كبقية صديقاتي اللائي صنعن أسر رائعة . . اتمنى ان يتحقق هذا الحلم فانا لا أكاد اصدق نفسي. .

تعالت صيحات امها واخواتها. . تعالي يا فاطمة كمّلي فطارك. . لكن هيهات فقد اسلمت فاطمة نفسها لاحلام اليقظة، وراحت تمني نفسها بمستقبل مشرق وحياة جميلة مع ابن الحلال الذي لا تعرف عنه أي شيء! لكنها راحت تتخيله. . وتسأل نفسها. . ترى ما شكله، وما

هي اوصافه وطباعه؟ ترى طويل ام قصير؟ أسمر أم قمحي أم ابيض. . هل هو نحيف أم سمين. . لكن شيء ما داخلها هتف لها بأن الرجل القادم سيكون موافقا تماما لما تهوى وتتمنى. . لكن أهم شيء فيه ان يكون صورة مختلفة تماما عن ابوها!

أما أمها فقد انتابتها كل المشاعر مجتمعة. . . فرح. . قلق. . خوف. . سعادة. . فهذه ابنتها البكرية، وصديقتها. . سوف تتركها بعد عشرة دامت قرابة ثلاثة عقود. . مرت كلمح البصر، فهي لا زالت تذكر اليوم الذي ولدت فيه فاطمة، وتتذكر يوم فطامها. . حيث حرمتها النوم ثلاثة أيام متواصلة. . واليوم الذي دخلت فيه المدرسة. . كل تلك الاحداث مرت من امامها وكأنها حدثت منذ لحظات. . وها هو الوقت الذي كبرت فيه فاطمة ليأتي العريس يخطبها ثم تنفصل عنها لتقيم في بيت رجل اخر غير ابيها. . شعرت بتلك الاحاسيس والابتسامة تملأ وجهها، والسعادة تغمر قلبها. . ثم تمتمت ببعض الكلمات لزوجها. . البنت مكسوفة، علشان كده هربت لغرفتها. .

وضعت الام صينية الشاي على الطبلية وراحت توزع اكوابها على افراد الاسرة، وتضع امام كل منهم كوب الشاي الساخن، وقبل أن تأخذ مكانها على الارض قالت بصوت عال، وصل مسامع فاطمة في غرفتها. . اول حاجة لازم نعملها ندهن البيّت. .

رفع زوجها كأس الشاي الساخن الذي كاد ان يضعه على فمه للتو بسرعة. . واوشك ان يسكبه على قدم زوجته وهو يرمقها بازدراء قائلا. .

ـ مافيش دهان بيت ولا زفت. . انت فاكرة الحكاية سهلـة. . ثم الناس دول جايين علشان يشوفوها، ويمكن ماتعجبهمش. .

ـ انت مهمـل في البيت من زمـان، ومنظـر البيت سيء. . ولا يمكن ان نستقبل نسايبنا الجدد بهذا المنظر. .

اشتبك الاثنان في خناقة زوجية صباحية، انتهت بسيل من الشتائم البذيئة اللاذعة، كالها الزوج لـزوجتـه، أمـام اولادهمـا اختتمهـا بسب الدين. . ثم نظر الى غرفة الصالـون امـامـه، وراح يلـوي عنقـه يمينـا ويسارا ويغمض احدى عينيه ويفتح الاخرى وقـد بـدى انـه غـارق في عملية حسابية. . ثم قـال. . خـلاص نـدهن الصـالـون فقـط. . لان تكاليف دهان البيت مصيبة كبيرة. .

لاقى اقتراح دهان الصالون استحسان الكل بما فيهم الام. . التي لم تعقب على الشتائم. . فهي معتادة منذ زواجها بمحمود على اسلوبـه الهمجي، وشتائمه القذرة، فان مر يوم دون ان تسمع منه شتائم غليظة اقلها: يلعن ابوكي يا بنت الكلب، حتى تعتقد انه مريض بحاجـة الى علاج. . فتغلي له المرمرية أو الشيـح او الشـاي بـالنعنـاع عساه يعـود لحالته الطبيعية المقززة التي اعتادتها. . لكنها كانت سعيدة لموافقتـه على دهان غرفة الصالون، وتناست كل شيء وفضلت ان يكون لون الدهان ابيض. . لانه يعطي وسع اكثر، ويتناسب مع جميع محتويات الصالـون من الكراسي الخشبية القديمة المختلفة الالوان. . والتي يعتقد من يراهـا انها جمعت من بيوت كثيرة على سبيل الاستعارة، أو انها سرُقت!

دبت الحركة في منزل محمود الغريب. . ولقب الغريب اضيف الى

اسم محمود لانه في الاصل ليس من سكان العريش، ولا هو عرايشي. فقد أتى العريش وعمره دون العشرين.. لكنه مع المصاهرة وطول الاقامة اصبح واحدا من أهل البلد، لا أحد يميزه عنهم.. الا ان لقبه لم يتغير وظل محمود الغريب..

ومحمود الغريب هذا له شكل مميز، فهو طويل القامة نوعا ما، له رقبة تحسب وانت ترقبها انها ستزداد طولا بين لحظة واخرى، وهذا راجع كما قال بعض من يعرف تاريخه.. للحركة المستمرة لعنقه، اثناء تلصصه على حوائط الناس وشبابيكهم.. لذلك فقد كانت له رقبة طويلة غليظة، بها اكثر من دائرة حلقية حول جلدها، وله وجه مكتنز بالشحم، يتوسطه أنف غليظ وعينان غائرتان، وشارب رفيع يعلو فمه الواسع الكبير الذي يحتوي على اسنان بيضاء ناصعة.

انشغل جميع افراد الاسرة بالاعداد لترتيب البيت وتنظيمه خصوصا فاطمة.. العروسة التي انهت تعليمها المتوسط منذ سنوات عديدة.. وجلست في البيت لانتظار ابن الحلال..

وفاطمة تتمتع بحظ وافر من الجمال الطبيعي.. فهي بيضاء، وطولها معقول.. ولها عينان واسعتان تعلوهما رموش جميلة وطويلة ووجه دائري وشعر اسود طويل وناعم.. طيبة ومطيعة لم تكن لها اي مشاكل طوال سنواتها الماضية، خارج البيت وداخله. وكانت من الطالبات المتفوقات..

بدأ الاولاد يخرجون محتويات الصالون من الاثاث الثقيل الى منزل جدتهم الذي يفصله عن بيتهم باب داخلي، ويضعونها تحت شجرة

الجوافة الازلية، اما فاطمة فقد انشغلت بازالة المرآة من على الحائط وكذلك الصور والبراويز.. وما ان همت بانزال صورة جدتها المعلقة على الحائط ومسحتها بفوطة.. حتى مسكتها بكلتا يديها ووضعتها امام عينيها وراحت دموعها تنساب بهدوء وصمت... وكأنها رحلت منذ قليل.. شعرت وكأنها تحدثها.. آه يا جدتي.. كنت اتمنى ان تشهدي ذلك اليوم حتى تفرحي بي.. فانا أول حفيدة لكي تتزوج.. لكنك رحلت عنا وتركت فراغا هائلا.. بعد رحلة عذاب وكفاح عشتيها بيننا، ولم يكن احد يشعر بما تعانيه.. بل ان ابي قد جار عليك مرات ومرات.. وكان احيانا يسبك ويشتمك، ولا احد يدافع عنك..

فقد كان لجدتي ولد وحيد هو خالي عاطف.. حيث لم يكن هناك تناسبا بين عمره الحقيقي وعمره العقلي.. وكان يقضي معظم وقته في البيت حيث لا يجد في الدنيا من يعطف عليه غير امه المسكينة، فكانت تهتم بشؤونه كلها.. فهي تصنع له الطعام، وتساعده في الاستحمام، وتنظف له ثيابه حتى انها تلبسه اياها في احيان كثيرة، وتضع له العطر.. اما اخواته البنات، فرغم تعلقهن الشديد به وحبهن له.. الا انهن انشغلن بازواجهن وبيوتهن واولادهن، وكان يقضي الكثير من وقته في ايامه الاخيرة في الاسواق، بين المحلات.. وما ان يرتاح لمكان ما، او دكان معين فسرعان ما يألفه، ويعتاد عليه، ويمكث معظم الوقت عنده، وكان اصحاب المحلات يعطفون عليه ويتباركون به..

اما والدي.. فكان غليظا فظا معه، وكثيرا ما كان يسخر ويهزأ منه، ويضحك عليه ويعمد لاضحاك الجميع على تصرفاته..

كانت تتحدث الى نفسها كما لو كانت في اجازة من الحياة . . او ان الحياة توقفت . . وظلت هي تزيل عن نفسها همومها وتثبت لها براءتها من الاثام والذنوب . . لما لا . . والتفكير والذكريات لا رقيب عليها . . لكنها تفضفض عن نفسها، وهي تنظر الى بيت جدتها الخاوي الخالي من كل شيء، الا من الذكريات الحزينة لاناس طيبون تركوا الدنيا بزخرفها، لاناس تكالبوا عليها وظنوا انهم خالدون فيها ابدا . . ومنهم والدي هذا . .

فوالدي يتمتع بذكاء خارق . . لكنه ذكاء كذكاء كارلوس الذي طالما قرأت عنه في الصحف والمجلات . . ذكاء يسخره للشر دائما ولجمع المال . . فقط جمع المال من أي طريق . . فالغاية لديه تبرر الوسيلة، ولا يأبه من أي طريق يحصل على المال . . حتى ولو بالقتل . .

في تلك اللحظات مشى بجوارها اخيها وصرخ في وجهها وهو يحمل كرسي كبير ليضعه تحت شجرة الجوافة في بيت جدته . .

ـ ايه يافاطمة . . انت قاعدة على الكرسي واحنا عمال نشيل العفش . . كل هذا تفكير في العريس . .

لم تأبه فاطمة لكلمات اخيها . . لكنها نهضت متثاقلة وذكريات الحزن تعتصر قلبها على خالها الذي تشك في ان والدها هو الذي قتله . .

دخلت غرفتها وراحت تستعيد ما دار في احدى الليالي بعد موت خالها . . فقد استيقظت ذات ليلة على صراخ أبيها وشتائمه لامها . .

فتناهى الى سمعها ما قالته امها لابيها في تلك الليلة من سنوات مضت . .

. . يكفي انك قتلت اخي . . وانا متأكده انه مات بعد المشروب الغريب الذي سقتيه اياه تحت الجوافة . . وبعد فترة قصيرة نقلناه الى المستشفى لاصابته بمغص حاد في معدته كان يمزقها . . ولم يلبث ان فارق الحياة بعد فترة قليلة . . انت طمعان في الميراث، وبالتأكيد خططت لموته حتى تخرجه من ميراث امي وتنفرد بنصيب أكبر . . ولم تكتف بالاراضي والاملاك التي بعتها لامي واخذت فلوسها، وكنت ترغمها على التوقيع على اوراق لا نعرف لها اصل ولا فصل . .

وهنا لم يتمالك الغريب نفسه، وقام على الفور يكيل لها الضربات الموجعة في كل مكان من جسمها النحيف ويشتمها . . ولم تجد فاطمة خيرا من الانسحاب حتى لا يعلم بوجودها أحد، وتكون مصيبتها كبيرة، وبقيت شاهدة على ما سمعت، لكنها لم ولن تجرؤ على البوح لاحد مهما كان، وظل صدرها سجنا لهذا السر الذي يميتها ليل نهار . .

تنهدت فاطمة بمرارة وقالت . . إن كان في الموت رحمه . . فقد ارتاح من الدنيا بموته المبكر . . لكن جدتي جزعت وحزنت عليه كثيرا، وبكته بقلبها وعقلها وكيانها . . وما لبثت هي الاخرى ان لحقت به . . وتركت لنا البيت ومحتوياته وحتى شجرة الجوافة!!

أفاقت فاطمة على صوت أمها تناديها . .

هيا يافاطمة ادخلي المطبخ لاعداد طعام الغداء، فأنا ذاهبة للسوق

لاشتري بعض التحف التي تناسب الصالون . .

بعد اسبوع تقريبا اكتمل ترتيب البيت واصبح مهيئا لاستقبال الضيوف الذين لا يعرفون عن محمود الغريب الا اسمه، واسم ابنته فقط . .

توالت الايام متثاقلة ببطء شديد على فاطمة التي صارت تعد الساعات والدقائق لرؤية العريس . . وشعرت كأن الاسبوع الباقي لزيارته مع أهله هو سنة أو اكثر في عمر الزمن . . اما أبوها فكان كل ليلة يجلس قبالة ابنته وسط الاسرة وينظر اليها، وكأنها معزة او سخلة يتمنى ان يبيعها بسعر مرتفع . . ويكرر على مسامعهم رغبته في ان يكون العريس مريش ومعه فلوس . .

فمحمود هذا لم يترك مهنة الا عمل بها، فكان نجارا له ورشة كبيرة مليئة بالمعدات والمناشير والمسامير . . لكن اسلوبه الفظ قلص زبائنه، فغير نشاطه وراح يشتغل في الحدادة، ثم عمل في مهنة الدهان لكنه ما لبث ان اصبح ميكانيكي يصلح انواع السيارات امام باب منزله . . ثم اصبح سائق ميكروباص لنقل الركاب بالاجرة . . لذلك فقد كان قدوة سيئة ومثل همجي لمعظم سائقي تكاسي الاجرة بالعريش . . اما المهنة الوحيدة التي لازمته طويلا وبقيت مصدر رزقه الاساسي لفترة طويلة فهي السرقة . . فكان حرامي محترف في سرقة البيوت ولا يتورع عن سرقة بيوت الاقارب والجيران . . بل ان حماته نفسها لم تسلم من لمساته السحرية في السرقة . . فكثيرا ما تعمد الى اصطحابها مع اسرته لزيارة بعض اقاربها، وكان يتركهم لكي يمضوا

وقتا ممتعا طويلا مع اقاربهم، ويختلق عذرا بضرورة ذهابه لانجاز بعض الاعمال الخاصة به. . فيذهب الى منزل حماته، وينتقي بكل ثقة ما يشاء من الاثاث او الاجهزة الكهربائية ثم يبيعه الى المعلم «عنانه» الذي يشتري الاشياء المستعملة، ويترك زجاج المنزل مكسورا او أحد الشبابيك مفتوحا، لايهام زوجته وحماته ان لصا محتالا انتهز فرصة غيابهم عن المنزل وسرق أشياء من بيت حماته. . بعد ان يذهب لاصطحاب اسرته وحماته من زيارتهم. . ليفاجأ الجميع بسرقة البيت. ويرى مع الجميع وجود علامات كسر او اقتحام للمنزل تبعد عنه الشبهة. . وقد عرفت حماته القصة، وايقنت انه حرامي. . لكنها كانت تحاول اغفال ذلك واغماض عينيها، بل أنها كثيرا ما دافعت عنه، وابعدت عنه كل التهم. . رغبة منها في التماس الحماية منه. . فبعد وفاة عاطف، وانحسار زيارة الاقارب لها، بسبب دفاعها عن محمود، وعلاقتها القوية معه، اصبح محمود الرجل الوحيد في حياتها، الذي يجب ان تعتمد عليه. . فهي تعيش بجواره، وقد دخلت مرحلة الكهولة، ولا تأمن ان تنام في منزل كبير بمفردها، فكان الغريب ليس مجرد زوج إبنتها فقط. . لكنه كان مصدر أمان لها. . فكانت تشعر بالاطمئنان الى جواره. . اما زوجته فقد كانت تعلم بسلوكه السيء ولم تسأله يوما عن اشياء يجلبها معه الى البيت، ولا كانت تجرؤ على تغيير سلوكه وتعديله. لكنها بالمقابل كانت تتفقد امها بين الحين والحين، وترسل لها طبق الغداء يوميا ولفترة طويلة من الزمن، وترعاها وتقدم لها الدواء. .

في اليوم المحدد حضر العريس وامه واخته، كان العريس من عائلة كبيرة مرموقة من عائلات البلد، ويعمل في الكويت، وقد حصل على اجازة سنوية مدتها شهر، يزور خلالها الاهل في العريش، ويسعى للارتباط بزوجة ان وجد العروسة المناسبة.

استقبلهم محمود الغريب بابتسامة عريضة كشفت معظم اسنانه البيضاء، ما لبث ان اختصرها فجأة ومرة واحدة.. فلا تستطيع رؤية سن واحدة أو جزء من سن، وكأنه ساحر محترف في سيرك كبير..

أما زوجته فراحت ترحب بالضيوف وترشدهم الى اماكن جلوسهم في الصالون الذي استغرق ترتيبه اكثر من اسبوع، واكثر من مائتي جنيه..

تجاذب العريس ومحمود الغريب احاديث جانبية بعيدة عن جوهر الموضوع. ما أشعر كل منهما أن مستوى التربية والثقافة والميول والتفكير لهما لا تكاد تلتقي..

فالعريس شعر بذلك الفرق الواضح في المستوى العام.. لكن لا يهمه هذا.. المهم العروسة وشكلها وثقافتها.. ومحمود الغريب ايضا شعر بنفس الفرق الواضح في المستوى العام.. لكن لا يهمه هذا.. المهم العروسة تعجب العريس، وبعدين الفلوس، واغتنام الفرص، وقد يقنعه بالمشاركة في انشاء مشروع معين، يدفع تكاليفه العريس، ويتولى محمود الغريب ادارته في العريش، ليحقق من وراءه مكاسب كبيرة، أو على الاقل يجد فرصة عمل له، او لاحد أولاده في الكويت!

دخلت فاطمة تحمل صينية الشاي ـ كعادة أهل البلد لظهور

العروسة امام العريس أول مرة ـ وقد تلاشت تلك العادة تدريجيا واصبح العريس يرى العروسة للمرة الاولى في الكلية او الشارع او المعهد او كورنيش البحر الذي يكتظ بالشباب طوال مساءات الصيف . .

اتجهت فاطمة صوب المنضدة، وكان العريس يرمقها في خطواتها الوئيدة، وهي تخفض عينيها الى اسفل قليلا تجاه الصينية والاكواب . . وخالطها لثواني قليلة ان تلك الاكواب والملاعق وأشياء اخرى، كان والدها قد سرقها من منزل احد اقرباء أمها في الشتاء الماضي . . وكان صاحب المنزل مقيما في احدى الدول العربية . .

وضعت الصينية على المنضدة التي تتوسط الصالون، ثم بحثت بكل خجل عن مقعد تلقي جسدها عليه، وقبل ان تجلس قالت لها امها: قدمي الشاي للضيوف يافاطمة . . قامت فاطمة لتقديم الشاي للضيوف . . والدة العريس ثم العريس واخته . . ثم أبوها فأمها . . وعادت الى المقعد الذي رشحته لجلوسها سابقا . . ولم يكن سواه خالي، لان الصالون كان يحتوي على كنبة كبيرة وثلاثة مقاعد منفصلة . .

استجمع العريس كل حواسه، وصار يرمق العروسة مرة اخرى، وبنهم شديد . . من أسفل الى اعلى، ومن أعلى الى اسفل، وقد بدى عليه الاندهاش والانشداه . . فقد راقت له واعجبته من اول نظرة . . ويبدو انه الغى البرنامج الذي كان وضعه لتلك الزيارة، حيث كان هدفها رؤية العروسة فقط، لكنه ضمر في نفسه على تغييره نحو

الاسرع. . فها هو يتحفز للكلام. .

قال العريس. . وقد وضع كفيه في وضع التصاق، وترك المجال لبعض اصابعه تتحرك، وثني ركبته وأسندها لكفيه. . انا عادل البراهمة ابن الحاج عبدالرحمن البراهمة صاحب معصرة الزيتون بالقرب من وادي العريش، وقد توفي والدي منذ سنتين، واخي الاصغر يدير المعصرة. . وأشار الى امه وقال. . وهذه امي ـ ام عادل ـ وهذه اختي الصغرى سعاد. .

أعمل في الكويت منذ عشر سنوات في مصفاة البترول بالاحمدي وراتبي كويس والحمد لله، وقد انهيت تعليمي الجامعي في هندسة القاهرة منذ احد عشر عاما. . وامتلك شقة كبيرة في الاحمدي مفروشة بكل الكماليات، وعندي سيارة مرسيدس احضرتها معي برا، عن طريق نويبع. . وناوي اتزوج خلال فترة شهر، هي مدة اجازتي، وآخذ عروستي معي للكويت. . وقد دلتني على العروسة صفاء صديقة فاطمة التي تسكن بجوار منزلنا، الذي تقيم فيه والدتي واخي واختي في شارع البوسطة، وعرفت عنوانكم عن طريق الاستاذ لطفي الذي يسكن الى جواركم.

أما الان وقد رأيت «فاطمة» فاني قد غيرّت خطتي حال رؤيتي لها اليوم. . وهاأنذا اطلب منكم يدها، وانا على استعداد لتلبية كافة مطالبكم. . ولقراءة الفاتحة الان. .

كانت فاطمة تختلس النظرات له اثناء حديثه. . ها هو العريس عادل. . انه شاب وسيم جدا، قصير نوعا ما، تقاطيعه جميلة

وصغيرة، وشعره ناعم يتخلله بعض البياض، ويرتدي نظارة طبية جميلة وانيقة.. وله ذوق رائع في اختيار الملابس.. فالبدلة يناسبها لون القميص، وكذلك الكرافته.. حتى حذائه كان يعكس موضة راقية له.. واخته ايضا انيقة وجميلة وكذلك أمه التي ترتدي ملابس محتشمة وذوقها عالي في نفس الوقت..

بدأ الضيوف في اعادة اكواب الشاي الى الصينية الموضوعة على المنضدة بعد ان شربوا ما بها.. وكانوا يقولون شكرا.. فترد أم فاطمة قائلة.. صحة وعافية، وظل الغريب جالسا على مقعده، يفكر في طريقة لسرقة دجاج من أحد المحلات التربية من سوق المركز، ليصنع وليمة فاخرة للعريس بعد يوم او يومين.. وكأنه ضمن الموافقة قبل ان يطلب العريس يدها!

قال عادل: أتعشم يا حاج محمود أن اسمع الرد الان..

قال الحاج محمود: لن نجد ناس أحسن منكم.. والبنت بنتكم ياحجة.. وعروستكم.. والف مبروك..

قرأت الاسرتان الفاتحة، وسُمعت أصوات زغاريد من اخوات فاطمة اللاتي كن يتنصتن من الغرفة المجاورة، او من المطبخ الملاصق للصالون.. مما شجع أم فاطمة على اطلاق زغرودة الخبرة والنفس الطويل.. وقام الجميع يهنئون فاطمة ويهنئون العريس.. أسرعت فاطمة واتجهت صوب المطبخ، حيث أعدت أخواتها مسبقا اكواب الشربات. حسب الاتفاق بينهم في حالة الموافقة.. وبدأت في تقديم الشربات من ناحية ام العريس.

قالت ام عـادل . . قـدمي لعـريسك الاول . . فـارتبكت فـاطمـة قليلا، ثم مشت باتجاه العريس، وناولتـه كـوب الشربـات، ثم قـالت الام . . وبعدين ابوكي، علشان هو اللي وضع يـده في يـد عـادل عنـد قراءة الفاتحة. فناولت فاطمة كوب الشربات لابيها ثم قدمت لام عادل ثاخته فأمها . . أما بقية اخوتها فتوزعوا . . بعضهم ذهب لابـلاغ جـار شم بالخبر السعيد . . والبعض الاخـر ظـل في المطبـخ يحتسي الشربـات بدون حسيب او رقيب!

تجـاذب الجميـع الحـديث على أمـل اللقـاء في مسـاء اليـوم التـالي لاستعراض تفاصيل برنامج الزواج، ومتطلباته وموعد الشبكة والفـرح والمقدم والمؤخـر . . وصـافحـوا بعضهـم البعض . . لينتهي ذلك المسـاء والفرحة تغمر الجميع.

لم تنم فاطمة ليلتها . . فالفرحة ملأت قلبهـا الـذي اتسـع لمـدينـة العريش وزيتونها ونخيلها وبحرها . . ولم تنم أمهـا ايضـا حيث كـانت تنكر في كل شيء . . في الزفاف والفستـان والنـادي والمعـازيم . . آه . . المعازيم . . سوف أدعو جارتنا ام سيف وزوجها فقـط . . امـا أخـواتي وازواجهن واولادهن فلن ادعوهم لحضـور الـزفـاف بسبب مقـاطعتهم لنا، لخلافات واتهامات من ازواجهن لزوجي . وكـذلك بنـات اعـمامي وخالاتي وبنات خالاتي وبنات خالي . . ثم انتبهت فجأة وقد ادركت ان معظم الاقارب قطعوا علاقتهم معهم بسبب سلوك زوجهـا، وسمعتـه السيئة . . مما سبب لها مرارة في حلقها، ابتلعتها دون ان يشعر بها أحد!

أما زوجها فقد راح يغط في نوم عميق بمجرد خروج الضيوف . .

في منزل العريس عادل، جلس افراد الاسرة وقت قليل استعرضوا فيه مواصفات العروسة الحلوة، وبعض الترتيبات الخاصة بالفرح، ثم دلفوا الى غرفهم لاصطحاب النوم. اما عادل فقد خاصم النوم جفونه وظل ساهرا حتى الصباح يدخن السيجارة تلو السيجارة، ويخرج تارة الى فناء البيت، يتحرك دونما هدف او اتجاه.. وهو فقط يفكر في فاطمة التي سحرته وأخذت لبه.. تمنى لو انها معه حتى الصباح، تخيلها بقميص النوم ترقد على الكرسي الهزاز الذي ينتظرها في بيته بالكويت.. وتخيل أشياء واشياء كثيرة دفعته بحماس للتخطيط لليلة الدخلة.. وساقته للتصميم على استعجال الامور، وابلاغ أهلها في وقت مبكر من صباح اليوم التالي.. فالخطوبة الاسبوع المقبل، والزواج الاسبوع الذي يليه، وفي نهاية الاسبوع الثالث يطير بها الى الكويت حيث يمضيان ما تبقى من الاجازة هناك، وأكمال شهر العسل بما تبقى من أيام العمر!

أخذ عادل يتردد يوميا على منزل محمود الغريب، في اوقات الصباح والظهيرة والعصاري والمساء، محملا بالهدايا الثمينة لفاطمة، والحلوى والفواكه لاسرتها.. وما أنتهى الاسبوع حتى كانت فاطمة مخطوبة رسميا الى عادل في حفل أشبه بالمأتم.. بسبب عدم حضور أحد من أهل العروسة.. بحجة ان عائلة محمود الغريب من مدينة بعيدة في الشمال، ولا يوجد أحد من اقربائه في العريش..

اكتست فاطمة بكمية لا بأس بها من ذهب الخطوبة، وراحت تلبسه كل لحظة، ولا تنزعه عن جسمها، وكانت خلال الاسبوع الثاني

تمرج مع خطيبها في سيارته الخاصة للتنزه في شوارع المدينة الساحلية والتردد على قرية سما العريش السياحية لقضاء سهرة عشاء . . او كافتريا عمر ابوالحسن بالريسة ، حيث الهدوء والنور الخافت ، والجو الكلاسيكي الرائع الذي كان يعشقه عادل . . وقد كانت بالنسبة لفاطمة المرة الاولى التي ترى فيها تلك الاماكن . .

بدأ العد التنازلي للفرح الكبير ، ومهرجان ليلة الدخلة . . وكانت الترتيبات على قدم وسام في تنظيم كل شيء بالسرعة الممكنة والبت الحاسم من . . تفصيل الفستان وحجز النادي ، وبطاقات الدعوة . فالعريس ميسور الحال ، وقد استغل ذلك لتسريع الامور . . لكنه انشغل ايضا وفي الفترة الصباحية تحديدا ، بتجهيز اوراق السفر له ، واستخراج جواز سفر لفاطمة ، وضرورة حصولها على تأشيرة كزوجة لدخول الكويت ، وانهاء بعض اجراءات سفر السيارة للعودة بها . . كل ذلك أخذ منه الجهد الكبير والمال الكثير . . وكل ذلك يهون في سبيل الظفر بفاطمة . .

الا ان تلك المصالح والمشاوير الجأته في اكثر من مرة للذهاب لمراكز الشرطة وادارات المرور ، لانهاء بعض الاوراق ، والحصول على توقيعات واختام . .

وبينما هو في احد تلك المراكز . . واذ به يرى صورة كبيرة ملونة لمحمود الغريب معلقة في برواز خشبي كبير في غرفة الباحث . . موضوعه تحت عنوان «لصوص المنازل» . .

لم يصدق في بادىء الأمر . . وراح يحدق مليا في الصورة . . انه

هو.. نفس شكل الحاج محمود، بابتسامته الكبيرة وصلعته البيضاء، وشاربه الذي يشبه ميزان اختل توازنه.. واسنانه البيضاء التي ظهر منها أكثر من واحد.. اقترب أكثر فأكثر واذ به مكتوب اسفل الصورة باللون الاخضر.. محمود الغريب!

جن جنون عادل، وغلى الدم في عروقه.. واحمر وجهه.. وذهب من فوره الى احد المكاتب في الدور الارضي لمركز الشرطة، حيث يعرف احد الاصدقاء يعمل هناك.. وطلب منه الصعود للدور الثاني برفقته.. وما ان وصلا الى برواز الخشب.. حتى اوقفه عادل وأشار الى صورة الحاج محمود وقال لصديقه..

ـ ايه حكاية الراجل ده؟

ـ اخبره صديقه بكل تناصيل حياته.. وعلم منه ان قضى تسعة اشهر في السجن بتهمة سرقة منازل ومحلات.. وقد اعترف بسرقة ستة بيوت مرة واحدة..

ترك عادل صديقه وهرول مسرعا الى سيارته لا يدري أين يذهب أو ماذا يصنع؟

اتجهت سيارته لا شعوريا بسبب حالة التوتر التي انتابته الى منزله، واخبر اسرته بالامر.. فنصحوه بالتأني والتريث للسؤال عن محمود الغريب.. فقد يكون الرجل مظلوم.. وياما في الحبس مظاليم..

وبعد سين وجيم وسؤال المعارف والجيران خلسة، وفي وقت

قليل جدا تكشفت لهم حقيقة محمود الغريب الحرامي، واتفق اطراف الاسرة فيما بينهم، على فسخ الخطوبة بالطرق الهادئة، خوفا من المشاكل. . ولانقاذ ما يمكن انقاذه من المصاريف والهدايا. . والبدء في البحث عن عروسة جديدة وناس اخرين.

توجه العريس وامه واخوته في وقت مبكر من صباح اليوم التالي الى منزل الحرامي محمود. . واخبروه انهم سوف يرجئون الموضوع للسنة المقبلة. . للتفكير اكثر، وزيادة العلاقات والمعرفة ـ وكان ذلك حرصا منهم على حساسية الموقف ـ لكن الغريب انكر ذلك عليهم. . وارتفع صوته شيئا فشيئا، ، وهاج وثار، واوشك على الدخول في منطقة السب والشتيمة. . مما دفع العريس عادل ان يخبره بصراحة بما رأه في لوحة الشرف بمركز الشرطة. . فكان ذلك حافزا لدخول محمود الغريب ساحة الشتائم من أوسع ابوابها. . فاندفعت كلماته السامة في كل اتجاه. . نال العريس واسرته جزءا كبيرا منها، واقسام الشرطة والحاقدين والمغرضين وكل الناس. . الجزء المتبقي. .

طلب العريس منه فقط اعادة الذهب واستعد للتنازل عن باقي المصاريف والهدايا. .

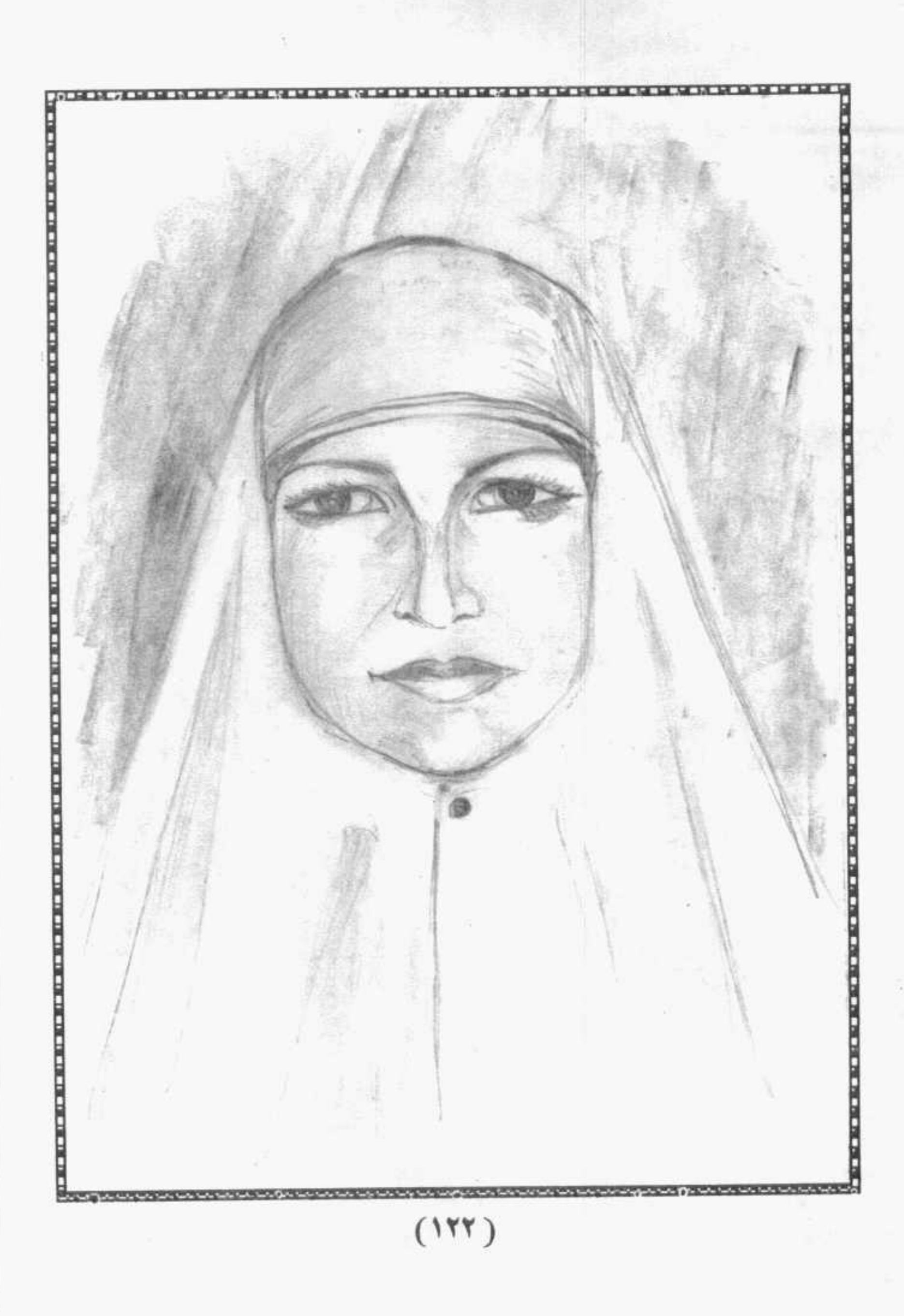
رفض الغريب بشدة. . وقال. . هذا الذهب هو رد اعتبار لسمعة ابنتي فاطمة. . وهو ثمن الفضيحة التي ستلحق بنا بسبب معرفة الناس لفسخ الخطوبة! وما يلحق بها من قصص ومتعلقات! وطلب من فاطمة التي كانت في حالة انهيار تام. . ان تحضر الذهب، ثم احتضنه بين يديه واقسم بالله ان هذا الذهب كوم. . وحياته كوم. .

ترك عادل وامه واخوته، المنـزل والـذهب وفـاطمـة، وخـرجـوا بهدوء، واعتبروا الموقف درسا قويا لهم في التعرف على الناس . .

اما فاطمة فكانت تسبح في بحر من الدموع، وهي تنظر لوالدهـا الذي يحتضن الذهب، وعريسها الذي هـرب من يـدهـا بسبب، سلـوك والدها الحرامي . . محمود الغريب .

* * *

الجوع



في حوالي الخامسة صباحا، أيقظت زوجها سعيد. . نهض كالمعتاد نشيطا، توضأ وصلى الفجر. وجلس على الطبلية يتناول طعام الافطار مع زوجته الحسناء ناهد. .

يمتلك سعيد سيارة نقل كبيرة، يعمل عليها بنفسه. . وحالته ميسورة، وقد رزقه الله بزوجة رائعة الجمال هي ناهد. . لكنه لم يرزق منها بأبناء طيلة سنتان من الزواج.

وصل الى مسامع سعيد أن جاره الحاج سعود، الذي كان يمتلك سيارة نقل مثله. . باعها. . واشترى لودر كبير يدر عليه المال الكثير. . فقرر سعيد أن يفعل كما فعل جاره الحاج سعود!!

فهكذا بدت العريش من سنوات قليلة. . حيث أصاب بعض أفرادها مرض الغيرة، والحقد المبني على غباء عدد غير قليل من ابناءها. . وانتشر هذا المرض ليصبح ظاهرة خطيرة تشمل قبائل بأكملها. ترسخت في نفوسهم قيم المادة. . التي ترفض بقاء أي قيم أخرى معها. . فمستحيل للانسان ان يكون خادم لسيدين. .

فقد كان سعيد. . سعيدا في حياته. . يذهب للعمل صباحا، ويعود قبل المغرب، ويحقق من عرقه الكسب الوفير، الذي يكفي حاجته ويزيد، ويقضي بقية وقته مع زوجته الجميلة التي يحبها. . أو في زياراته العائلية لبعض الاقارب والجيران.

قرر سعيد ان يتصرف كما تصرف الحاج سعود. . الذي تصرف قبل ذلك كما تصرف جمعة. . فباع سيارة النقل، ووضع ثمنها مقدما لشراء لودر، واستدان من البنك مبلغا كبيرا، لاكمال ثمن اللودر. .

وظل يدفع للبنك أقساطا شهرية كبيرة!!

بدأ سعيد يبحث عن عمل للودر . . فكان يجد له عمل في مناطق بعيدة متفرقة من انحاء مصر . . فهو تارة يعمل في الصعيد . . وتارة في توشكي . . وتارة في الاسكندرية . . ويمكث هناك قرابة الشهر، لا يعود للعريش الا في موعد القسط الشهري للبنك . . ثم يعود مرة اخرى، الى مكان اخر في الواحات، ويغيب فترة كبيرة ولا يعود الا لوقت قصير، يسدد القسط، ويرى زوجته لليلة، ثم يعود مرة اخرى . . وهكذا!!!

انشغل سعيد كثيرا باللهاث وراء الفلوس، وصار همه الاكبر الحصول على المال، لتسديد القسط الشهري . . وصار لا يضع امامه الا صور بعض الاقارب او الاصدقاء الذين يعملون في نفس المهنة . . والذين مشوا خطوات سريعة في طريق الثراء.

استطاع سعيد بعد مرور سنة أن يسدد ديونه للبنك، ثم راودته فكرة ان يفعل كما فعل ابن عمه حمدان . . وحمدان يمتلك معدات كثيرة ترابط معه في الجبل، وتدر عليه عشرات الالاف من الجنيهات.

حدث نفسه سعيد . . ماذا لو عملت مثل حمدان . . أشتري اكثر من لودر وبعد فترة قصيرة أصبح من اثرياء البلد . . ولن تكلف الحكاية اكثر من مشوار للبنك . .

. . . عاد سعيد في وقت متأخر من احدى الليالي متعبا مرهقا، بعد رحلة سفر طويلة ترك خلالها (لودره) في الجبل . . ايقنت زوجته مدى التعب البادي عليه . . . فهيأت له الحمّام والملابس الجديدة . .

وخلال وقت قصير كانت تعد لـه وليمـة عشـاء شهيـة كـان ضحيتهـا زوجان من «الزغاليل» كانت تربيهم في البيت . .

فناهد امرأة مدبرة وشاطرة . . وتهوى تـربيـة الطيـور في البيت . . حيث يوجد بجوار سور البيت من الـداخـل، اكثـر من غـرفـة بـدون ابواب او شبابيك . . فعمدت الى تربية الحمام والدجاج والبط والاوز . . وانـواع اخـرى . . فهي لا تحب الـدجـاج الابيض، وتحب البـيض البلدي . . كما انه لا يشغلها طفل او طفلة، فتظـل تـأنس بقـرب تلك الطيور الجميلة . . وتشغل وقتها في اطعامهم والاهتمام بهم .

جلست على المائدة مع سعيد وعيونها لا تبرحه . . فقد اشتاقت له والى رجولته، كما اشتاقت الى صحبته وأنسه . . لكن سعيدا كان يأكـل لقمة، ويغمض عينيـه لقمتـان . . من شـدة التعب والارهـاق . . وقـد طلب منها اثناء ذلك، ان توقظه مبكـرا، حتى يـذهب للبنك ويحصـل على سلفيـة كبيرة، يشتري بهـا أكثـر من معـدة، ليكـون مثـل حمـدان واكثر . . ويكوّن بذلك اسطولا من المعـدات . . يسيطـر بـه على معظم اعمال الجبل . . ويكسب الملايين ! !

حاولت زوجته استدراجه للسهـر، لكنهـا فشلت . . وأيقنت انـه نائم لا محالة . .

وفجأة صرخت في وجهه بصوت عال بدد سكـون الليـل المحيـط بالبلدة . .

انت جاي ليه؟ . . شهـر وأنـا انتظـرك . . ثم تـأتي لتمضي ليلتك اليتيمة نائما . . وفي الصباح تزور البنك، ثم تعود الى الجبل لأعد الايام

والليالي من جديد شوقا وانتظارا لك . . واذا عجزت عن تلبية التزاماتي نحوك . . فهناك مطالب أخرى اولها . . مصاريف البيت؟

شعرت ناهد أن صوتها راح يتقفز خلف الحوائط ، ليفتت السكون ، فأغلقت الباب والشباك واستطردت تعاتب زوجها

ـ منذ اكثر من ثلاثة اشهر ، لم تترك لي مليم واحد . .

رفع سعيد رأسه في تثاقل وقال لها :

ـ عندك البيض البلدي والطيور . . . يمكنك أن تبيعي منها ، وتصرفي على نفسك ، وتعملي قرشين كويسين . .

نظرت له بغيظ شديد وقالت : كمان انا بدأت أشعر بالخوف لوحدي . . وسآتي بأخي سمير ، الذى أنهى سنوات الجامعة ليقيم معي . . . لذلك لابد ان تترك لي مصروف البيت . .

ـ تمتم سعيد بكلمات سمعت آخرها كلمة . . . خير .

اقترض سعيد سلفية ضخمة من البنك ، واشترى المعدات الكثيرة ، وانتشرت أعماله في كل مكان ، وأصبح لا يجد لنفسه وقتا للعنايه بها ! ! . . فكيف بناهد . . ؟

كان يمضي الاسابيع الطويلة دون المرور عليها . . . فانحصرت مشاويره بين البنك والجبل . . في أغلب الاحوال !

في صباح احد الايام دق محصل الكهرباء على الباب . . فراحت ناهد تفتح له الباب بثياب النوم . . وكان أخوها الذي ينام عندها قد خرج . . وما أن رآها المحصل ، حتى كاد يفقد عقلة لجمالها وثيابها التي

كشفت الكثير من جسدها وجمالها الرائع . . فأخذ يرمقها بنظرات . .
كانت هي في أشد الحاجه لها . . فابتسم لها . . وبادلته الابتسام!

أصبح المحصل عشيقا للست ناهد!!

كانت تنتظره كل ليلة في غرفتها الخاصة، بعد منتصف الليل، فكانت تترك له علامه مميزة على الباب، حتى يعرف ان كان اخوها موجودا أم لا؟ وما عليه بعد ذلك سوى ان يدير مفتاح الباب . . فقد اعطته نسخة منه .

استمرت علاقة ناهد بالمحصل فترة كبيرة، أحبته خلالها بجنون، ومارست معه جميع اشكال الخطايا . . ولم يكن يفارقها الا ليلة واحدة . . ليلة زيارة زوجها!

في الفترة الاخيرة بدأ أخوها يسهر كثيرا خارج البيت، ويتردد عليها في آخر الليل مما حرمها - في اوقات كثيرة - من الخلوة بالمحصل .

وسّوس لها تفكيرها ان تقيم علاقة بين أخوها سمير وجارتهم لمياء . . فهي مطلقة، لكنها صغيرة وجميلة، ولها طفل واحد عمره سنة . وتقيم مع أمها العجوز في البيت المقابل . . ويقطن الى جوارها أخوها الاكبر أيمن وزوجته واولاده . . كما ان لمياء شكت لها أكثر من مرة، بألم الغربة والحياة بدون زوج . . وبحالة الغليان التي تمر بها المرأة المطلقة . .

وهي تذكر ان لمياء قالت لها ذات مرة . .

النساء كالخضرة . . فاذا لم تروى بالمياه . . فانها تموت . . والرجل

هو المياه . .

اختمرت الفكرة في رأس ناهد، حتى تتخلص من أخيها . . ويخلو لها الجو مع المحصل . ونجحت بمهارة منقطعة النظير في ربط أواصر العشق والوله بين أخيها سمير وجارتها المطلقة لمياء . .

استعادت ناهد المحصل من جديد . . فكان يمضي معها الليل، وأخوها يمضيه مع لمياء . . ولم يكن يعلم أحد منهم الا الجزئية التي تخصه فيما يدور . . إلا ناهد . . فكانت تعرف ما يدور . . وكل ما يدور !

في إحدى الليالي الصيفية المشبعة بالرطوبة . . دلف سمير الى بيت لمياء . . التي كانت تنتظره بشغف . . حيث عمدت الى أمها وابنها، وهيأت لهما نوما عميقا في غرفة نائية بالبيت الكبير منذ وقت طويل . . قبيل العشاء .

ثم هيأت نفسها لسمير، بطريقة لم يجد الشيطان لنفسه ثقبا ينفذ من خلاله، ليترك بصماته، أو يوجه جنوده في عمل ما يروق له . .

شعر سمير بمغص في معدته اول اللقاء . . ما لبث ان زال بعد تناوله لكوب العصير من يد لمياء في استراحة ما قبل العاصفة . . وعاد الى وضعه الطبيعي، وبدأ يفكر في احياء الليلة .

في بيت ناهد . . كانت غرفتها تفوح برائحة الجنس الاباحي الخارج عن كل مألوف . . اللامحدود . . اللامعقول . . بدون زمن . . أو ثياب !

أما في البيت الاخر المتابل.. فقد تسللت لمياء لغرفة أمها، واطمأنت تماما على أن أمها وأبنها يغرقان في نوم عميق.. وعادت لسمير، لتضرب بكل قوانين المعقول عرض الحائط.. وتجتر قواها لتشبع ذاتها من غريزة الجنس بنهم شديد.. وبدون زمن.. وبدون ثياب أيضا!

بعد وقت غير معلوم في زمن النشوة العارمة.. شعر سمير بعودة الالم.. وفجأة جحظت عيناه، وانطلق لسانه بين فكيه.. ولفظ آخر أنفاسه.

في لحظات أدركت لمياء بضرورة سرعة التصرف في صمت. لكنها ما إستدارت ناحية المرآة، حتى لمحت وجهه في المرآة. بجحوظ عينيه.. ودماءه التي تسيل من فمه.. حتى شعرت انها بين قتيلين..

صرخت لمياء صرخة قوية مدوية، ايقظت سكان الشارع جميعا.. وكان أولهم اخوها أيمن.. الذي يسكن مع زوجته واولاده الى جوارهم..

ظن أيمن ان مكروها اصاب قريبتهم وجارتهم ناهد التي تقيم بمفردها.. وخطر بباله ان لصا حاول سرقتها.. أو احدهم اقتحم عليها عزلتها وأراد افتراسها.. وهو لا يزال يذكر تماما وجه زوجها سعيد، الذي أوصاه بها خيرا..

إستل أيمن سكينا كبيرة، وفي ثوان قليلة قفز على الحائط وكسر باب غرفة ناهد.. ليجدها متجرده تماماً من ملابسها مع المحصّل، في منظر دفعه دون تفكير لغرس السكين في صدر المحصل.. لكنه لا يزال

يسمع صراخا كثيرا في الشارع. . نزع السكين من صدر المحصل، وقفز الى الشارع، ليجد الجيران يصرخون ويتشنجون، والفوضى تملأ بيت أخته لمياء. . فقد اتجه الجيران مباشره صوب مصدر الصوت في بيت لمياء.

ادرك أن أمه العجوز ماتت لا محاله. . دفع الناس المتجمهرة خارج غرفة أخته، ليجدها عارية تماماً بجوار عشيق عار ميت. . طار عقله. . رفع السكين وهي مازالت تقطر بدماء المحصّل، وأرسلها بقوة وبدون تفكير في صدر أخته لمياء. . لينهي حياتها في غرفتها، ويتركها جثة هامدة. . بجوار جثة سمير!!

حُكم على أيمن بالسجن مدى الحياة. .

أما سعيد. . فظل يلهث وراء المعدات والفلوس والبنوك. . بدون زوجة أو أولاد، الى ان دخل السجن لعدم قدرته على الوفاء باقساط البنك. . وبسبب الغيرة العمياء، من زملاء وأقارب في نفس الكار، لا يشبعون أبدا من جوع المال. . وقد تركوا زوجاتهم عرضة لعيون الذئاب الجائعة دوما.

* * *

الفهرس

رقـــم الايـــداع : ١٧٦٦٥ / ٢٠٠٠

شركة الإسلام مصر للطباعة